NOTHING BUT THE NIGHT

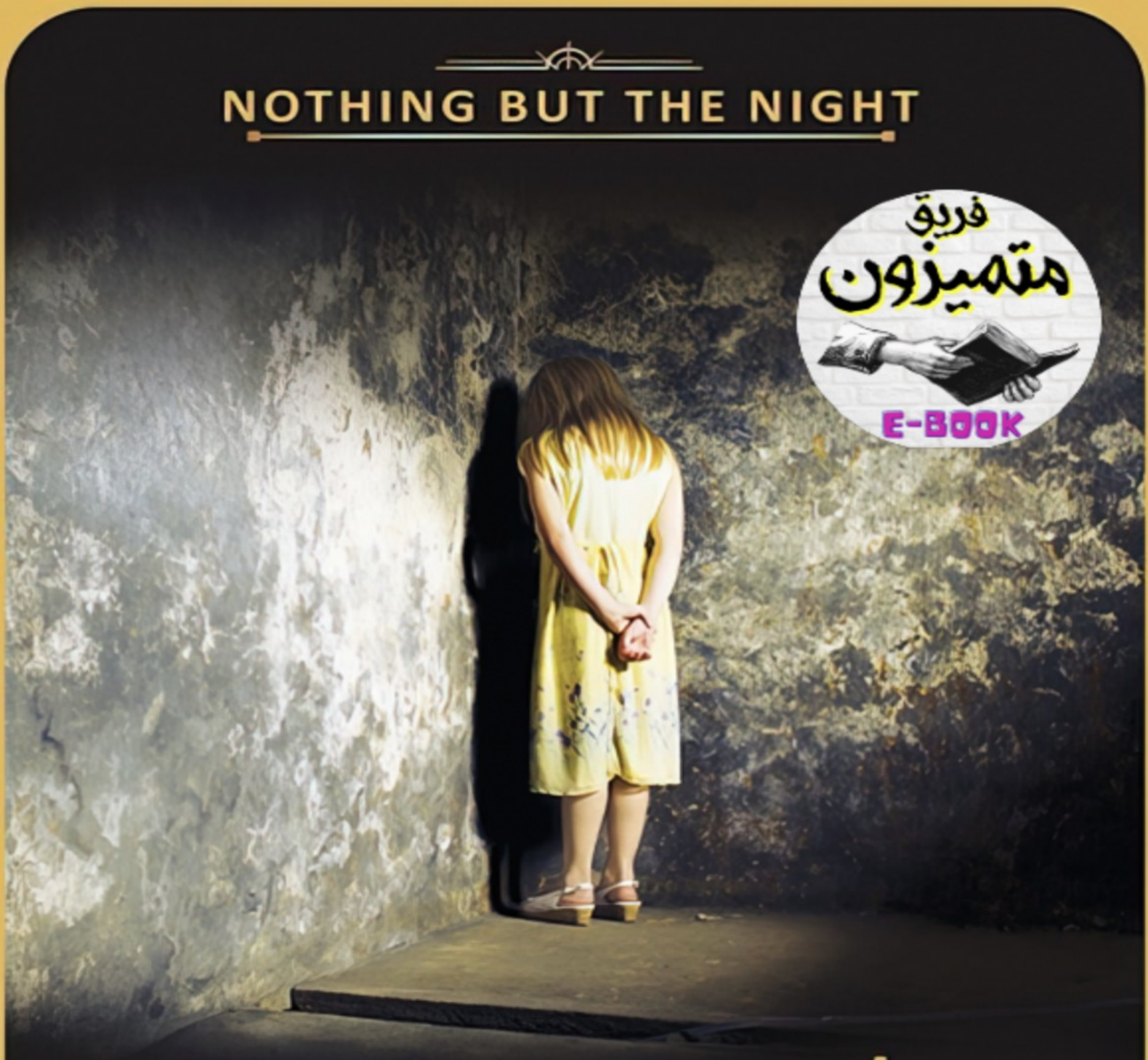

لا شيء سوى الظلام

جون بلاكبِرن

ترجمة: شيرين هنائي

دارك

ترجمات

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رواية..

لا شيء سوى الظلام

تأليف: جون بلاكبَرن
ترجمة: شيرين هنائي

نبذة عن الرواية

كلُّ ما يحيط بالطفلة "ماري هَارْب" غامضٌ ومفزعٌ. أحلام مريعة، روحٌ عجوز تحلُّ في عقلها الصغير، جرائم قتل طقسية، تجارب علمية لم تخطر ببال أحدٍ! هذه الرواية تقف على الحدود الفاصلة بين روايات التشويق، الرعب، الجريمة، والروايات النفسية. تجربة فريدة، ورواية مفصلية في تاريخ أدب التشويق. استطاع الروائي البريطاني جون بلاكبرن في رواية "لاشيء سوى الظلام" أن يمزج أنواع شتى من الأدب ببراعة، فالرواية بين يديك تحوي خليطًا مميزًا من نوعيات أدب الرعب، وأدب الغموض والتحقيقات، والأدب النفسي المعتمَد على تشريح ووصف النفس البشرية ببراعة، وكل ذلك على خلفيةٍ من معلوماتٍ طبية شيقة تتسق مع أجواء الرواية وأحداثها المُحيرة. صدرت الرواية عام 1968، ولا زالت سابقة لأدب عصرها، تحوِّم في خلفيتها تأثر الكاتب بعلم النفس والطقوس السحرية القديمة وأجواء المؤامرات. لا زالت سُمعته ككاتب متميز لأدب الرعب راسخة، وكمؤسِّس لنوع هجين من ذلك الأدب، يُعد أكثر عُمقًا من المألوف حتى يومنا هذا.

مقدمة

أربعة أشخاص هم من وجدوا هيلين فان ترايلن، وثلاثة منهم كانوا أصدقاء مقربين لها.

اللورد مايكل فاونلي قد عرفها منذ كانت طفلة، والطبيب إيريك بيتس مُستشارها الطبي ومُتوَلٍّ تطبيبها أثناء فترات مرضها المتكررة، وجين فِنس مُدبرة منزلها ورفيقتها طيلة عشرين عامًا.

وكان راع من كنيسة إنجلترا – السيد جلوسيب- هو الاستثناء، لم يكن صديقًا لها، لكنه كان قد استُدعي لتحصيل اشتراك منظمة أوكسفام.

كان فاونلي وبيتس يتحدثان إلى جلوسيب عندما سمعا الانفجار، وكونهما مُسنين، فقد أخذا وقتًا طويلًا حتى صعدا الدرجات، وقد سبقهما رجل الدين.

عند مُنعطف السّلم، قابلا جين فِنس وماري فالي، وهي طفلة صغيرة من دار ترايلِن لرعاية الأيتام، وكانت تُقيم مع راعيتها منذ أسبوعين.

كانتا تبكيان ولم تقدر الآنسة فِنس على شيء سوى الإشارة نحو باب حجرة النوم.

كان بيتس هو أول من دخل الحجرة، وابتسم هو وفاونلي في ارتياح عندما اعتادت عيونهما الظلام.

قال فاونلي:

- حمدا لله يا إيريك. كان هذا صوت ماسورة عادم سيارة في الشارع، وجين تكبُر في العمر مثلنا وتتخيل أشياء؛ لأنك تقلقها وتخيفها بشأن حالة هيلين الصحية.

كانت الستائر نصف مُسدلة، وفي غبشة الأصيل استطاعا أن يريا صديقتهما مُمدَّة على الأريكة في وضعٍ مألوف لديهما. كانت ترتدي معطفها المنزلي الأزرق المُعتاد، وعصا مشيها جوارها، وقط حبشيٍ يُدعَى أوسكار وايلد مُتكورٌ عند كتفيها كأنما يحرس سيدته الغافية.

هنا أضاءت جين فِنس النور، وصرخت!

كان بين كفي صديقتهما المُغضّنتين مُسدس صغير، وأوسكار وايلد عند كتفيها يلعق ما تبقى من وجهها الدامي.

* * *

- ثماني زجاجات خضراء، مُعلقة فوق السور.. ثماني زجاجات خضراء معلقة فوق السور..

صدحت أصوات الأطفال في الحافلة تعلو فوق صخب الشارع وزحامه، وفوق دقات ساعة الكنيسة مُعلنة الساعة السادسة.

عامٌ قد مضى على وفاة هيلين فان ترايلِن..

- ولو سقطت زجاجة خضراء ووقع عليها الدور، ستظل سبع زجاجات خضراء معلقة فوق السور..

عبر سائق الحافلة زحام طريق مارفورد. ابتسمت سيدتان على جانب الطريق للأطفال الراكبين يغنون ويصخبون.

فكرت السيدتان - أثناء انتظارهما فتح إشارة المرور كي تعبرا الطريق- أن الأطفال لُطفاء. يبدو عليهم حُسن التربية والهندام. غالبًا هم تلاميذ في مدرسة خاصة في طريق عودتهم من رحلة. يختلف هؤلاء الأطفال عن مثيري الشغب الذين يملأون المنطقة منذ أن بُنيَت المساكن الشعبية.

كانوا يغنون، وتبدو عليهم سعادةٌ جمَّة.

- خمس زجاجات خضراء، معلقة فوق السور..

غمغم سائق الحافلة وهو يزيد السرعة بعد فتح إشارة المرور:

- أوغاد صاخبون!

كان يشعر بالمرض والتعب، والزحام يزداد، وعليه أن يوصل الأطفال لمطار لندن في تمام السادسة والنصف.

- وإذا سقطت زجاجةٌ خضراء...

الصداع يعتصر رأسه، غالبًا من الإنفلونزا. لو يغير اللُّعناء تلك الأغنية لأخرى.. لن يُحدِث هذا فارقًا على أي حال!

لم لا تتولى إحدى تلكما البقرتين المسنتين أمرَ إسكاتهم؟!

نظر السائق رينولدز عبر الممر نحو المرأتين رماديتي الشعر، كانتا غارقتين في حديثٍ طويل ولم تُبدوا واعيتين بما حولهما من صخب وغناء.

لم يعد هناك انضباط كما ينبغي من صِبية هذه الأيام. استعاد أيام دراسته وكيف كانوا يُؤدَّبون ضربًا بالعصي والأحزمة. لم يعد هناك احترام للكبير ولا اعتبار لأي شخص، وكانت السيدة الشقراء جواره أصدَق دليل على ذلك. كلما أنهى الأطفال أغنية، التفتت اللعينة لهم مشجعةً أن يبدأوا بأخرى!

أشعل رينولدز سيجارة كي يهدئ أعصابه المتوترة. السماء صافية، لكن الطريق لا يزال رطبًا جرَّاء أمطار الظهيرة، والساعة قد جاوزت السادسة بثلاث دقائق.

بعد دقيقة بالضبط، وفور وقوع الزجاجة الخضراء التاسعة والأربعين، بدأ رينولدز يفقد السيطرة على الحافلة، فصعدت فوق الرصيف، وانقلبت مخترقة صالة حانة الثور الرمادي. لاحقًا ستحتاج شركات التأمين تدوين عددٍ هائلٍ من الخسائر في المفروشات والحوائط، والتي كانت تحاكي الطُرُز الفيكتورية والجورجيَّة.

كانت ثمة إصاباتٍ ثلاث: إصابة السائق، وإصابة أحد زبائن البار بقطع في إصبع القدم إثر سقوط فأسٍ كان معلقًا على الحائط، وإصابة فتاة في السابعة تُدعى ماري فالي بجروح وسحجات طفيفة.

ظلت رخصة قيادة رينولدز نظيفة من أي مخالفات طيلة خمسة وثلاثين عامًا، منها ثمانية قضاها في العمل لدى مؤجِّري الحافلات.. وللأسف، توفي رنولدز في المستشفى بعد ساعة من الحادث.

الفصل الأول

- بالطبع تَعُون وجود الأجسام المُضادة في جسد الحيوان..

ابتسم السير ماركوس لَفين الموقر والحاصل جائزة نوبل في الطب، وداعب ربطة عنقه المُنمقة وهو ينظر إلى تلامذته.

- الأجسام المضادة.. تلك المخلوقات الدقيقة التي تعيش متكافلة مع خلايانا وتعد حليفًا لها.. جيشٌ متأهبٌ ضد جيوش العدوى البكتيرية والفيروسية السابقة، والتي تهدِّدنا باستمرار. بدون تلك المؤازرة، يفشل الجنس البشري في البقاء.

توقف ماركوس هنيهة ناظرًا نحو الساعة، لا زال أمامه خمس دقائق ينهي فيهم محاضرته التمهيدية، بعدها يمكنه أن يتناول غداءه في ناديه، ثم يهرع إلى معمل الأبحاث المركزية.

كان سعيدًا في البداية عندما دعيَ لإلقاء سلسلة من المحاضرات في مستشفى «القديس بِيدَه»، لكن تلك المحاضرات بدت له الآن كسدَادِ دَينٍ ثقيلٍ.

على بُعد ثلاثة أميال، في المعمل المركزي، كان ينتظره مخلوق مجهري يَعِد بإنقاذ حيوات الملايين من البشر، وكان يتوق للعودة إليه كي يفحص ما استجد.

أردف مخاطبًا الحضور:

- معروف لديكم خطر الاستخدام العشوائي للمضادات الحيوية، فتلك المواد تقتل الجراثيم التي تهاجمنا، وتضعف كذلك حلفاءنا ودفاعنا ضد العدوى: الأجسام المُضادة. وبدونها يصبح جسد الإنسان مفتوحًا أمام هجمات العدوى المتكررة.

مرت دقيقة أخرى، وبدأ ماركوس في جمع ملاحظاته وأوراقه مُردفًا:

- ما يبحث عنه الباحثون الآن هو حلٌ لتلك المعضلة، عن وسيلة لتغيير طبيعة الأجسام المضادة، لتحويرها لمخلوق يتحمل أسوأ ما سنفعله به كي يصبح أكثر عدائية تجاه الدُّخلاء. هذا سيكون موضوع المحاضرات، وفي الأسبوع المقبل سأجذب نظركم لأبحاث إيدلمان في ميونخ، وتريفور-جونز في نيويورك، وفريق من علماء البكتريا هنا في لندن. كلنا نبحث عمَّا يبدو مستحيلًا: نظام دفاعي خارق ضد الأمراض. لو نجحنا فسيموت البشر من كثرتهم، ومن المجاعات التي ستصيبهم جرَّاءها.. لكن هذه ليست مشكلتي!

ابتسم ابتسامة أخيرة مغلقًا حقيبته، وأضاف في النهاية:

- شكرًا جزيلا لإنصاتكم، سيداتي سادتي. إلى اللقاء في المحاضرة التالية.

انحنى لهم ثم هرول خارجًا من القاعة، طويلًا مهيبًا، لكن إن حدقت في وجهه فسترى المعاناة بادية من تحت مظهره الكيِّس الواثق.

* * *

قاطع سيره في الممر حارسٌ في المستشفى، وكان مبتهج الملامح؛ كونهما أصدقاء قدامى، وصاح:

- سيدي.. سير ماركوس.. أخيرًا استطعت اللحاق بك. طلب مني العميد أن أوصل رسالة إليك، هو يريد مقابلتك على وجه السرعة.

ابتسم الرجل مجددًا عندما رأى تعبير وجه ماركوس، ثم أضاف خافضًا صوته:

- سيدي، يمكنك الرحيل لو كنت مُتعجلًا، وسأخبر العميد أنني لم ألحلقك. لمعرفتي بالدكتور بلَنكيت، فأنا متأكد إن ما يريدك بشأنه يحتمل التأجيل.

- أنت تغويني.. تغويني بشدة!

كان ماركوس يعرف أن الازدحام في الشارع سيبلغ ذورته عند الساعة الثانية، وكان يريد الوصول إلى معمل الأبحاث في أسرع وقت ليفحص المستجدات، لو أن ثمة مستجداتٍ.

كان يتوقع فشلًا آخر، فلو نجحت تجاربه، سيتغير كل شيء في العالم.

وقف لحظات يُفكر ثم هز كتفيه مُستسلمًا وقال:

- أنت صديقٌ طيبٌ، لكن عليَّ تلبية نداء العميد يا جاكسون.

والتفت ماركوس عائدًا نحو الدَّرَج.

* * *

صاح عميد المستشفى برايان بلنكيت وهو يمد يده نحو ماركوس:

- يبدو أن جاكسون قد لحقك.. شكرًا لتكرمك علينا ببضع دقائق إضافية. شكرًا لك.

كان بلكنيت رجلًا آيرلنديا مسنًّا سمينًا، ذا لحية رمادية وعينين محاطتين بالبشرة المحمرة، وقد اكتسب لقب «الغرير» بجدارة، فقد كان شبيهًا بحيوان الغرير في إلحاحه حتى يحصل على ما يطلب، وصار اللقب يُطلق عليه من أجيالٍ من تلامذته وزملائه. فقد الرجل اهتمامه بالطب، وراح يمضي وقته في الاستماع لشكاوى تمويل المستشفى ومشاكل الإدارة.

راح العميد يلهث -وكأنه هو من كان يصعد الدَّرج وليس ماركوس- وهو يقول:

- أتريد سيجارة؟ مشروبًا؟ لُقمة سريعة قبل الغداء؟

هزَّ ماركوس رأسه وقال:

- شكرًا يا دكتور. لا أريد أن أكون وقحًا، لكنني متعجل بعض الشيء، فهل يمكننا الدخول في الموضوع مباشرة؟

- طبعًا، طبعًا.. شباب هذه الأيام في عجلة من أمرهم دومًا.

كان ماركوس في الخامسة والأربعين من عمره، لكن العميد كان يحادثه وكأنه طالب في السنة الأولى من الكُلية.

قال العميد:

- سأكون مختصرًا قدر استطاعتي. بما أنك عضو في مجلس الإدارة الآن، فما سأحدثك فيه من صميم عملك.. هو عمل قد يكون سخيفًا ومُحرجًا لمستشفى القديس بِيدَه. ليس من اللائق أن نضايق الناس، سير ماركوس. خاصة الأغنياء المهمين من الناس مثل أوصياء فان ترايلِن. بالطبع سمعت عنهم.

- سمعت عنهم القليل. هم جماعة خيرية أسَّسَتْها السيدة هيلين فان ترايلِن، أرملة المليونير الأمريكي. أليست هي مَن سمعنا عن وفاتها منذ فترة؟

بدأ العميد في مِلء غليون قديم بالتبغ وقال:

- أجل هي.. توفيت منذ عام سير ماركوس. كانت تعاني من مشاكل في المعدة، واكتشف الطبيب إيريك بيتس إصابتها بورَم غير قابل للإزالة الجراحية. لم يكن لديها سوى المسكنات لتعيش عليها ما تبقى من عمرها؛ لذا فجَّرتْ رأسها بمسدس. أمرٌ محزن، لكن الجمعية التي أسستها لا زالت تعمل.. تدعى «أخوية فان ترايلِن».

أشعل الغرير عود ثقاب، فتصاعدت سحب رمادية من الدخان غزت أنحاء مكتبه. أردف:

- قصة مؤثرة.. هم عدد من الأغنياء الأرامل بلا أطفال، قرروا تكريس ما تبقى من حيواتهم للخدمة المجتمعية الخيرية. أنفقوا الكثير في أبحاث علاج السرطان وغيرها من الأبحاث الطبية، اشتروا منزلًا ضخمًا عند الساحل الغربي وحولوه لدار أيتام. تلك الدار هي دُرَّة تاجهم، يسكنها حوالي ثلاثين طفلًا، مُجهزة بفريق للتدريس وحمام سباحة، ودار عرض سينمائي، وطبيب متقاعد مُقيمٌ في الجوار؛ لذا، فمن الجنون أن يخسر المرء جمعية تتفق بهذا السخاء.

نظر ماركوس بحدة إلى ساعته قائلًا:

- لديك حق أيها العميد، لكن ما دخلنا بذلك؟

- لنا دخل عظيم يا سير ماركوس. ولو يحق لي القول، لقلت إنه وجبَ عليك أن تضع تركيزك على تلك العلاقات. أعرف مدى أهمية أبحاثك، لكن أحيانًا أظنك تنظر لكل شيء نظرة ضيقة من خلال عدسة مجهر.

انطفأ الغليون، فعكف على إعادة إشعاله ببطءٍ شديدٍ مضيفًا:

- لو أنك تقرأ الجرائد، لعرَفْت أن مجموعة من أيتام دار فان ترايلِن قد تعرضوا لحادث بعد رحلتهم إلى لندن. الحافلة التي كانت تُقلهم إلى المطار ليعودوا إلى إسكتلندا قد انقلبت وحطمت جزءًا من حانة قديمة بالقرب من هونسلو. لحسن الحظ لم تكن الإصابات كثيرة، شخص قُطع إصبعه، وسائق توفي بعد نقله لمستشفانا، وطفلة صغيرة مصابة بإصاباتٍ طفيفة. لا بُدَّ أن تطَّلع على تقريرها الطبي.

ألقى ماركوس نظرة سريعة على التقرير وقال:

- لو كنت مُصرًّا.. جرح في الخد والكتف الأيمن لا يتطلب أحدهما خياطة. كدمات على الفخذين.. بعض أعراض صدمة. لا أفهم شيئًا سيدي العميد. الطفلة سليمة تقريبًا ولربما تكون سُرِّحَت من المستشفى كذلك.

قام العميد من جلسته وراح يذرع الحجرة في غضب هاتفًا:

- أجل. أي رجل عاقل كان سيفترض ما افترضته سير ماركوس. أي طبيب كان ليسرِّح الفتاة فورًا.. لكنها وقعت في يد متخصصي النفسي البارع، زميلك بيتر هَينس. بسبب أعراض الصدمة، طلب الجراح أن تُعرض الطفلة على هَينس، وقد حصل منها على تلٍّ من الترهّات.

فتح العميد خزانة وأخرج منها رزمة من أوراق الفولسكاب، ورماها على المكتب وكأنها شيء مُقرف. أضاف العميد:

- بعد عدة فحوص سريعة للطفلة، المدعوة ماري فالي، توصل هَينس إلى أن الطفلة لا تعاني الصدمة، وإنما تعاني مرضًا عقليًّا قد يكون خطيرًا. فكّر هَينس في أغلب الأمراض العصبية، أو الإنهيار العصبي، أو الفصام.. كلامٌ فارغ.. لا أنا ولا أنت نفهم كثيرًا في علم النفس، لكنَّ كلينا يعرف أن الفصام هو مرض عضوي لا يمكن تشخيصه قبل سن البلوغ.. اقرأ بنفسك.

عقد ماركوس حاجبيه مُحدقًا في الصفحة الأولى من التقرير.. العميد مُحق في كونه وهَينس أصدقاء، لكن ماركوس رغم ذلك يلعن هَينس وخطه البشع.. لماذا لا يكتب تقاريره على آلة الكتابة؟ لماذا يغرقه في سيل من الحروف المُنعقدة الغامضة؟

- هذا أمر بعيد عن قدراتي سيدي العميد.. لكن ما هي شهادة السائق التي ظل هَينس يذكرها؟ قلت لي أن الرجل توفي بعد نقله للمستشفى بوقت قليل.

نظر الغُرير إلى التقرير وقال:

- آه.. هذا.. الرجل بالفعل قد مات، لكنه تكلم قبل ذلك.. كان مُهتاجًا قبل أن يفقد الوعي. ظلَّ يكرر إن الطفلة ماري فالي هي المتسببة في الحادث. قال إنها أخذت منه سيجارته وطعنته بها في خده. هراء؛ لأن ثمانية شهود منهم شاهدين بالغين، أقروا أن الفتاة كانت جالسة في كرسيها ولم تتحرك قبل أن تنقلب الحافلة. قالت التحقيقات أن سبب الحادث هو أن الحافلة كانت مسرعة والأرض زلقة. يبدو أن السائق لم يكن واعيًا وهو يشهد تلك الشهادة، ظلت رخصة قيادته نظيفة من المخالفات طيلة حياته، وكان يبحث عن كبش فداء ليتهمه بما حدث.

نظر ماركوس لنهاية التقرير، ووجده مُذيلًا بتوقيع العميد.

- أرى أنك -برغم كل هذا- تؤيد تقرير هَينس.

- أنا أؤيده، برغم أنني لا أميل لهَينس كثيرًا. فالرجل تحت سن الأربعين، ومع ذلك فقد مرَّ بثلاث زيجات فاشلة ولم يستطع الحصول على أي وظيفة سوى هنا، ولم نكن لنقبل به لولا أن لدينا قصورًا في الإخصائيين النفسيين؛ لذا، أرسلت في طلب استشارة طبية، وطلبت من اللورد فاونلي – رئيس

مجلس إدارة أخوية فان ترايلِن منذ وفاة السيدة هيلين- أن يترك ماري في المستشفى لإجراء بعض الفحوصات.

- وما كان رد فعله؟

نظر ماركوس لساعته مرة أخرى. لو أن بلَنكيت يعمد إلى بيت القصيد، فسيكون أمامه وقتٌ للغداء قبل الذهاب للمعمل.

أترى التجربة نجحت أم هو فشلٌ جديدٌ؟

الفشل يعني أن تذهب ستة أشهر من العمل الجاد هباء، ويذهب معها أمله في مخلوق مجهري ينقذ الملايين من البشر. لا بُدَّ أن زملاءه في التجربة في طريقهم إلى المعمل الآن.

قال العميد في غيظ:

- لقد قلب اللورد فاونلي الطاولة عليَّ يا سير ماركوس، فقال لي: طالما الطفلة بخير وسليمة جسديًّا، فعلينا إرجاعها إلى دار الأيتام فورًا في إسكتلنده، وأضاف أن الدار مُجهزة بطاقم طبي كامل، وأنهى حديثه بأنه سيرسل موظفًا لديه لأخذ الطفلة في تمام التاسعة من صباح اليوم.

- أرى إنه محق تمامًا. إن لم تعاني الطفلة مرضًا مُعديًا قد ينتقل لزملائها في دار الرعاية، فلا حق لنا في الاحتفاظ بها ضد رغبة أهلها أو المسؤولين عنها. لا يوجد ما نفعله إذاء ذلك.

- قلت كل هذا لهَينس، وكان جليًّا لي أنه هو من يحتاج لفحص نفسي، فقط ظل متمسكًا برأيه، وبضرورة استخراج ورق رسمي يُمَكِّننا من حجز الطفلة. فهو يرى أنها تعاني حالة عقلية خطيرة، ويحتاج لوقتٍ أكبر كي يشخصها بدقة. لقد ألقى عليَّ محاضرة عن أنماط كارل يونج والتي طالما اعتبرتها دليلًا غير علمي. علينا أن نتخلص من هذا الرفيق يا لَفين.. ربما كان صديقك، لكن ليس بوسعي الاحتفاظ برجلٍ غير متزن ضمن طاقمي الطبي.

- تقول إنه كان متحمسًا بشكل غير متزن للقضية؟ غريب هذا.. لقد تناولت الغداء مع بيتر هَينس أمس، وأخذته في جولة في المعمل وأمضينا ساعاتٍ معًا، ولم يذكر قَط حالة ماري فالي. ألهذا استدعيتني سيدي العميد؟ لأن عقد هَينس سينتهي هذا الشهر وأنت لا تفكر في تجديده؟ أتظنني سأعارض قرارك لأنني صديقه؟

دفع ماركوس كرسيه خلفًا وقام واقفًا، ثم أضاف:

- أنا لن أعارضك سيدي العميد، لكني أظنك مخطئًا. أنت طبيب وأنا عالم بكتيريا ولا يعرف أحدنا الكثير عن عِلم النفس. لذا، رغم أن هَينس يبدو غريب الأطوار، إلا أنه إخصائي ماهر، وربما تكون ماري فالي مريضة عقلية. عمومًا، الفتاة غادرت المستشفى والقضية أُغلقت.

هز بلنكيت رأسه مطولًا وقال:

- سير ماركوس، أنت تفاجئني.. أتظن أنني أهدِر وقتك ووقتي في مناقشة انتهاء عقد هَينس؟! ماري فالي لم تغادر المستشفى، الطفلة لا زالت هنا! وكعالم بكتيريا، فأنا أبغي استشارتك.

سار تجاه الباب جارًّا ساقيه وقد بدا عليهما بدايات شلل رعاش. أضاف العميد:

- الطفلة ظلت تحت رعايتنا لأنها في الصباح الباكر مرضت مرضًا عضويًّا شديدًا.. خطيرًا. سَمِعَت بكاءها ممرضةٌ فهرعت إلى حجرتها، وجدت نبضها قد وصل إلى اثنين وتسعين نبضة في الدقيقة، حرارتها كانت مائة وستة درجة وكانت تتعرق بشدة. لاحقًا أصيبت بطفح جلدي على الصدر والبطن. لقد أردت فقط أن أمنحك صورةً عامة قبل أن تفحصها، ولهذا السبب ظَلت الفتاة في المستشفى ولم ترحل كما اتفقت مع اللورد فاونلي.

هزَّ العميد رأسه مجدَّدًا عندما رأى تعبير وجه ماركوس الفزِع وقال:

- نحن لن نطيل الحديث بينما طفلة تموت يا سير ماركوس، الطفلة بعيدة تمامًا عن الخطر، لكن المستشفى نفسها في دائرة الخطر. اللورد فاونلي اتهمنا بالإهمال الجسيم، ولا أستطيع الآن دحض هذا الاتهام.

فتح بلنكيت الباب متأهبًا لاقتياد ماركوس عبر الرواق وأضاف:

- شيء ما أصاب الفتاة وكاد يقتلها، وأتمنى أن تستطيع معرفة كنه هذا الشيء.

***

كانوا قد أودعوا ماري فالي حجرة خاصة في نهاية قسم العزل. خرجت من الحجرة ممرضة وقابلت العميد وماركوس قائلة:

- هي أفضل حالًا بكثير. بحسب تعليمات السيد هَينس، فقد أعطيتها جرعة أخرى من عقار جينومايسين عند الظهيرة، جرعة بالغين، وحرارتها الآن قد انخفضت وصار تنفسها سلسًا.

رفع ماركوس حاجبيه هاتفًا:

- السيد هَينس أوصى بجرعة بالغين من عقار جينومايسين؟!

كان ذلك العقار هو مضاد حيوي جديد، بالكاد قد خرج من طور التجارب، وهَينس ليس طبيبًا بل معالجًا نفسيًّا، فكيف يتحمل كل تلك المسؤولية؟

- السيد هَينس هو أول من عاين الطفلة، أليس كذلك؟

- أخبرتني الأخت مارتِن أنه كان ملازمًا للطفلة منذ أن جاءت إلى المستشفى، وقد أخبر الأخت أنه كان يريد مراقبة نمط نوم الفتاة. عندما وجدت الأخت مارتِن أن درجة حرارة ماري آخذة في الارتفاع، ذهبت لاستدعاء الطبيب المُقيم، إلا أن هَينس قابلها في الرواق وأخبرها أنه سيتولى أمر الحالة. أعتقد أن الأخت تضايقت إلى حدٍّ ما من تصرفه.

يعرف ماركوس الأخت المذكورة، ويعرف صرامتها وأنها لا تحتمل الهراء حتى من كبار المُستشارين الطبيين، فما بالك بإخصَّائي؟ قال ماركوس:

- أستطيع تخيُّل كل ذلك، وماذا فعل السيد هَينس بعدها؟

- ذهب لفحص الطفلة، لكن الأخت مارتِن استدعت الطبيب براين ويليامز، وقد أقر الاثنان عقار الجينومايسين. كان تأثيره فوريًا كما قالت لي الأخت مارتِن، فخلال ساعة، كانت الحرارة قد انخفضت وصار النبض عاديًّا.

- فعلًا؟ شكرًا لك.. سأفحص الفتاة بنفسي.

فتح ماركوس الباب ودلف إلى الحجرة المضيئة المزدانة بالورود والأثاث الزاهي. تلاشى تجهُّمه عندما اقترب من السرير الصغير المُضاء بشمس الخريف الحانية. قال ماركوس للطفلة:

- أهلًا ماري.. اسمي دكتور لَفين، وقد جئت كي أخبرك أنك طفلة طيبة، وأنك ستشفين سريعًا.

تطلع ماركوس إلى وجه ماري فالي على الوسادة، فابتسمت له. كانت شقراء الشعر، زرقاء العينين، وللعجب كانت سمراء البشرة.

قالت الطفلة في طمأنينة ناعسة:

- أهلًا أيها الطبيب. هل أنت طبيب حقيقي أم أنك مثل السيد هَينس؟ لقد سمعت الأخت مارتِن تقول إنه ليس طبيبًا حقيقيًّا. هل جئت كي تخبرني أن في إمكاني العودة لبيتي؟

- أتمنى ذلك يا ماري، وأعتقد أنك ستعودين لبيتك في أقرب وقت.

فحص ماركوس التَّبُقُّع تحت ذقنها، والذي بموجبه سيتمكن العميد من تبرير الإبقاء على الطفلة في المستشفى. هذا الطفح الجلدي قد يكون معديًا، لكن لا فكرة لديه عن مُسبِّبه. على الأغلب ليس هذا عرضًا للجدري أو الحصبة، لكنه كان يُشفى بالتأكيد.

ربنا أنقذ الجينومايسين حياة ماري فالي، لكن ماركوس كان متشككًا في ذلك. هذا التبقّع ينبئ بطفح جراء زيادة التعرق، أو طفح جلدي عصبي.

أيًّا كان ما قاله السيد هَينس، فالطفلة هادئة وفي حالة عقلية ممتازة، لكن تعرضها لحادثٍ كهذا قد يُسفر عن بعض الأعراض الغريبة.

ربَّت ماركوس على الدُّب الأصفر الصغير جوار وسادتها وقال:

- ألستِ مُرتاحة هنا يا ماري؟ ألا تحبين أنت ودُبُّكِ اللطيف الإقامة معنا؟

- نحن سعداء هنا سيدي الطبيب، إلا في الأوقات التي يضايقني فيها السيد هَينس. عمومًا هذا ليس بيتي.. عليك أن ترى البيت الذي أقامته لنا العمة فان ترالِن يا دكتور لَفين، هناك في جزيرة عند قمة إسكتلنده.. للمنزل أبراج كالقلاع الحقيقية!

لمعت عيناها الزرقاوان وهي تتذكر، وأردفت:

- عليَّ أن أعود لبيتي لأحضر الحفلات.. الحفلة الأولى هي حفلة يوم ميلاد العمة هيلين فان ترايلِن، ويحضرها كل رُعاتنا. مديرتنا تقول إنه بالرغم من أن العمة هيلين قد صعدت للسماء، إلا أنها ستحضر الحفل معنا وتسعد بصحبتنا.

أخفى ماركوس تعبيرات وجهه عن الطفلة، فقد ماتت السيدة فان ترايلِن ميتة مفزعة، ويبدو أن تلك المديرة عُصابَّية مؤذية.

سألها ماركوس مُغيِّرًا الموضوع:

- وماذا عن الحفلة الثانية؟

- في الخامس من نوفمبر طبعًا، عندما نحرق دمية جاي فوكس.. هل حضرت حفلات التخييم والالتفاف حول النيران يا سيدي عندما كنت صغيرًا؟

عادت إليه ذكريات الحرب العالمية الثانية، أجل يا صغيرتي.. أذكر النيران وأصوات المدافع.

- ماري.. ماري فالي..

قالها وهو يزيح الذكريات القاسية جانبًا، كانت درجة حرارة الطفلة ونبضها طبيعيين، لكن التقرير المعلَّق عند طرف السرير يقول إن حرارتها قد جاوزت المائة وسبعة سابقًا.

- اسمٌ جميل لفتاة أجمل.. كم عمرك يا ماري؟

- عمري سبع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أسابيع. لكن اسم ماري فالي هو اسمٌ من ضمن أسمائي العديدة يا سيدي.

تغيرت تعبيرات وجه الطفلة ونظرت إليه مُرتابة وأردفت:

- كان اسمي من قبل: ماري هارب، لكن العمة فان ترايلِن غيَّرته إلى ماري فالي عندما كنت أقيم عندها قبل حادث رحيلها.. قالت إن اسم فالي أجمل بكثير. متى ستدعني أخرج من هنا، دكتور لَفين؟

- في أقرب وقت يا ماري. السيدة فان ترايلِن كانت محقة، فاسم فالي أجمل.

فكر الطبيب: هارب؟ ماري هارب؟ أين سمعت هذا الاسم من قبل؟ لا.. ليس ماري، بل آنا هارب. لكنه لم يستطع أن يتذكر شيئًا عن صاحبة هذا الاسم.

- والآن.. لنلقِ نظرة على حالة صدرك يا عزيزتي، لنرى متى تعودين لحفلاتك. لنتخيل أن صدرك صندوق كنز، فيه ما يكفي لشراء تذكرة لسكوتلنده.

مدَّ ماركوس يده ليفك أزرار منامتها، فسبقته الصغيرة تفكها بدلًا عنه وهي تبتسم له في حِشمة. تأكد ماركوس في نفسه من أن هَينس مخبولٌ، فلا توجد أي علامة تشير إلى كون الطفلة غير طبيعية عقليًّا، غير أنها ناضجة فكريًّا بشكل أكبر من سنها قليلًا.

نظر ماركوس للطفح الجلدي على صدرها، كان ذا لونٍ ضاربٍ للبنفسجي الباهت، ملتفًّا حول الصدر كهلال. هذا رد فعلٍ تحسّسي ولا عجب أنهم لم يشخصوه بشكلٍ صحيح. ماري فالي بعيدة عن دائرة الخطر، وإن لم تكن قد تعاطت جرعة الجينومايسين في وقتٍ مبكر، لكان الطفح سبَّب لها تشوهًا دائمًا.

أخرج عدسة مكبرة من جيبه، ومال يفحص الطفح الجلدي.. قال في نفسه: هذا مستحيل.. أنت تقفز لاستنتاجات دون فحصٍ مدقَّق.. لا بُدَّ من مسبب لذلك الطفح الجلدي..

كان الغضب يعتمل في صدره، وتتسارع دقات قلبه. كان يرى على صدر الطفلة خمسة أشكال على هيئة نجوم متماثلة الأبعاد.

حاول ماركوس أن يتمالك نفسه، فآخر مرة رأى فيها تلك الأشكال كانت على جلد حيوان محلوق الشعر، وما تسبب فيها هو كائن حي من نِتاج معمله.

الفصل الثاني

«عا-مل المن-جم.. في عمر التاس-ع والأر_بعين.. بدأ يهزل و- يشحُ-ب.. وبه لن نست-عين..»

راح ماركوس يغني محاولًا تهدئة نفسه. كان صوته خشنًا نشاذًا وهو قابض بكفيه على عجلة القيادة مُدندِنًا.

علا صوت السيارة حين ضغط ماركوس على بدال البنزين، فانطلقت سيارته الفيراري متعدية حدود السرعات القانونية.

سُحقًا للأغنية اللعينة..

كالدوريلّا ٦.. هذا هو ما ينبغي التفكير فيه، فهو المستحضر الذي دخل.. لا.. بل حُقن في مجرى دم ماري فالي. هو الذي كان ليشوه بشرة الطفلة كالجدري لولا عقار الجينومايسين. بدون تلك الجرعة الوحيدة من المضاد الحيوي غير المصرَّح به بعد، لانتشر الطفح الجلدي وإنفتحت ثآليله وصار معديا، عدوى تتعدى حدود جسد الطفلة مُمتدة إلى عددٍ غير محدود من الأشخاص.

الكالدوريلّا..

سُميت على اسم مُكتشفها البروفيسور فيودور كالدور من بودابيست، وهي أول محاولة لصنع أجسام مضادة في المعمل. برغم أن كالدور قد بدأ بداية ناجحة، إلا أن أبحاثه انتهت إلى فشلٍ. شيء ما في أبحاثه كان خاطئًا. الكائنات الحية التي أنتجها كانت فعَّالة في قتل البكتيريا، لكن أغلب البشر كانوا يعانون من حساسية تجاهها وتلفظها خلاياهم محدِثة طفحًا جلديًّا وارتفاعًا في درجة الحرارة.

السُلالة رقم ٦ كانت أخبث سلالة أنتجها كالدور، فلم يكن عَرَضها الجانبي مُعديًا فقط، بل كان مقاوِمًا لكل المضادات الحيوية الشائعة عدا الجينومايسين.

منذ عدة أشهر، قام ماركوس وأربعة من علماء البكتيريا من فريق معمل الأبحاث المركزي بمحاولة لترويض هذا الوحش واستئناسُه، لكنهم فشلوا. ظلت بقايا تلك السلالة الشرسة محفوظة في المعمل، ذات المعمل الذي رافق فيه ماركوس السيد هَينس في جولة أمس. وقد ترك ماركوس زميله لدقائق وحده هناك ريثما كان يرد على مكالمة هاتفية.

لم يذكر ماركوس شكوكه للعميد، كل ما قاله إن ماري في حالة مستقرة، لكن إصابتها قد تكون معدية؛ لذا أوصى بالتحفظ عليها في الحَجْر الصحي حتى يتبينوا مُسبب العدوى.

قرر ماركوس أن يضيع مستقبل بيتر هَينس.

أوقف ماركوس سيارته أمام مجمَّع شُقق جرينهام جيت، والذي يسكن فيه هَينس. اندفع يدق الباب في غضبٍ وعصبية.

فتح بيتر هَينس الباب وصاح مُرحِّبًا:

- ماركوس! أنت هنا أخيرًا يا صديقي. الساعة تقارب الثانية ظهرًا، وكنت أظنك ستكشف حيلتي الصغيرة في وقتٍ مبكر. بالطبع يمكنك طردي خارج المستشفى أو إلقائي في السجن.. لن أندهش.

يميز هَينس لهجة كونكي ثقيلة، وكان يتحدث باستهزاء وسخرية. كان رجلًا نحيلًا في السابعة والثلاثين، ذا شعر أشعث، ويرتدي نظارة سميكة تعطي انطباعًا بعينين زائغتين خلفها.

أردف هَينس:

- لكن النقطة المهم هي، هل ستفعل أيًّا مما ذكرت؟ لا أظن. لكن ماذا فعلت أنا؟ أنا سرقت كمية ضيئلة من سلالة كالدوريللا أمس، وحقنت الصغيرة ماري ببعضها. هل هي في خطرٍ صحي؟ أنت أخبرتني كل شيء أمس عن تلك السلالة، أتذكر؟ وقد أوصيت لها أمس بجرعة بالغينً من عقار جينومايسين قبل أن يتسبب الطفح الجلدي في تشويهٍ لها، وقد تأكدت من أن الطفلة تناولت دواءها. كل ما فعلته هو أنني أمرضت فتاةً لسويعات، ولستُ نادمًا على فعلتي. كان عليَّ أن أكسِب وقتًا، كان عليَّ أن أمنعها من مغادرة المستشفى حتى أنتهي من فحوصاتي.

- اسمعني يا بيتر، لو أن هناك مريضًا عقليًّا فهو أنت، لا الطفلة الصغيرة. لا بُدَّ وأنك مجنون تمامًا، مُختل!

انتظر ماركوس اعتراضًا من هَينس أو رجاءً، لكن برودة أعصاب هَينس أرعبته، فأردف:

- لسنا في معتقل نازي هنا! لا يمكننا التجريب على بشر!

- أنا لست مجنونًا يا ماركوس.. أنا مهموم.. مهموم للغاية.

دخل ماركوس إلى شقة هَينس، وغاص الأخير في كرسيه المُندس وسط أكوام الكتب والأوراق، ولم يكن ثمة زوجة أو خادمة ترتب له حجرة معيشته.

قال هَينس:

- أنت أول من صادقتهم عندما التحقت بالعمل في مستشفى القديس بيده، لكني لن أُعوِّل على تلك الصداقة. في نفس الوقت، أعترف أنك خبيرٌ في مجالك وعليك أن تنظر لي بذات العين، فأنا خبير أيضًا في مجالي. هذه الطفلة تبدو عادية بالنسبة لكم، كما يبدو بالنسبة لي مريض طاعون دبلي طبيعيًّا في مراحل مرضه المبكرة. لكنني أؤكد لك أن ماري فالي مريضة عقلية وخطرة، وتحتاج إلى علاج حقيقي. أخوية فان تريلِن يطالبون بتسريحها، وهذا حقهم القانوني، وكان عليَّ أن أجد طريقة لإبقائها في المستشفى؛ لذا، لست نادمًا على ما فعلت.

- أتقول إنها خطرة؟ أتتحدث عن فتاة في السابعة من عمرها؟

كان ماركوس يحاول الإقلاع عن التدخين، إلا أنه وجد نفسه يسحب سيجارة دون أن يشعر. لطالما كان يعتبر العميد رجلًا متطرفًا في الحكم على الناس، لكنه يؤيد بشدة وصفه للإخصائي النفسي الماثل أمامه بعدم الاتزان.

مدَّ هَينس يده بولاعة نحو ماركوس وقال:

- الأطفال يكبرون ليصيروا يافعين يا صديقي العزيز. لو أن أودولف هتلر تلقى علاجًا مبكرًا في طفولته، لكان أهلك أحياء في هذه اللحظة وما كنت لتتعفن أنت في معتقل نازي. بالإضافة إلى أن عددًا من الناس قد عانوا من أفعال ماري.. هي نفسها عانت، بالإضافة إلى سائق الحافلة وأسرته التي فقدته. أجل.. أنا أصدق شهادة السائق.. لدى ماري ولع غير محمود بالنار، وقد أثار هذا الولع منظر الرجل وهو يشعل سيجارته. أنا متأكد من ذلك لأنني تركت ولاعة جوار سريرها على سبيل التجربة، وعندما ظننت أنني لا أراقبها، أشعلتها وقربت الشعلة من وجه دمية الدب.

لم يبد على ماركوس التأثر بما قال زميله، لكنه تذكر كيف لمعت عينا الطفلة حين تحدثت عن إحراق دمية جاي فوكس.

قال ماركوس:

- أغلب الأطفال يحبون النيران.

- لكنهم لا يحلمون بالنيران والألم.. هكذا هم الأطفال الأسوياء. لا يتحدثون في نومهم عن أشخاص وحيوانات يعانون الاحتراق أحياء.. لا يختبرون ألمًا وعذابًا حقيقيًّا وهم نيام. ماري فالي تمر بكل هذا يا ماركوس.

وضع القداحة جانبًا وبدأ في تقليب الأوراق أمامه وهو يقول:

- مارى ترى ذات الحلم في كل يوم أمضته تحت رعايتنا، وتحت تأثير من تنويم مغناطيسي ومخدر بسيط أقرت بتفاصيله. كانت تصف حجرة صغيرة ذات باب معدني، وكانت محبوسة في داخلها. ترى الباب يحمر بفعل الحرارة، وتسمع أصوات حيوانات ورجل يصرخ من خلفه ذلك الباب.

وجد بيتر هَينس ما كان يبحث عنه، فنظر نظرة سريعة في ورقة فولسكاب وأردف:

- لقد سجلت صوتيًّا تلك الجلسة معها، وسأسمعك التسجيل لاحقًا. أتمنى لو تهتم بكل التفاصيل التي تحكي عنها. الحجرة كانت تفوح برائحة المطاط المحروق، كان ثمة ثقب في الباب، ومسدس معلق على حائط، وعلى الحائط الآخر رأت خزينة مثبت عليها لوحة نحاسية صغيرة تحمل اسم صانعها.. مؤسسة لينكسفيل بدترويت. تحدثت عن النيران المتسربة من باب صغير وعن العجل الذي سقط. كانت تستخدم لهجة وكلمات أمريكية خالصة، ومصطلحات لا تستخدم إلا في صناعة التعليب في الغرب الأمريكي.. ثم لمَ تتكلم فتاة في السابعة لم تخرج خارج نطاق بريطانيا عن «خرطوش» بدلًا من أن تستخدم الكلمة الدارجة هنا: بندقية؟

قام ماركوس وسار نحو النافذة. كان اليوم الصحو تتحول سماؤه إلى غيام مُتلبد، لا بُدَّ وأن زملاءه في المعمل المركزي قد كشفوا الستار عن نتائج تجاربهم وقد سجلوا فشلًا آخر. قال ماركوس:

- ربما حكى لها أحدهم تلك القصة يا بيتر.. ما تشخيصك؟

- ليس لدي تشخيص مؤكد، فقط شكوك أحتاج إلى وقت لتأكيدها. أتمنى أن تمنحني هذا الوقت يا مارك، وأتمنى كذلك أن تكون شكوكي خاطئة.

التفت ماركوس نحو زميله، ورأى لأول مرة نظرة استجداء خلف نظارته السميكة. أردف هَينس:

- لو أن ماري أكبر سنًّا لشخَّصتها بالفصام. لكنني أؤمن بما آمن به كارل يونج بشأن النمط البدائي، حيث يتوارث جنس ما ذكريات عبر أجيال وأجيال.

أطفأ ماركوس سيجارته وقال:

- ذكريات أموات؟! أنا أحترم كارل يونج كعالم رائد، لكنك تتحدث كالمشعوذين والسحرة يا بيتر.

راح هَينس يقلب في الأوراق مجددًا وهو يقول:

- ربما كنت كذلك، لكن علمنا لا يزال في المهد. كل ما أقول هو أن شيئًا ما مستحوذًا على ماري يبث فيها ذكريات لم تعشها، ودقة التفاصيل تجعلني غير مقتنع بكونها قد سمعت ما قالت من شخص آخر. من خلال الوقت الذي أمضيته مع ماري، يمكنني أن أقول إن حالتها ستتطور وتصبح غير قابلة للشفاء إلا إذا بدأنا علاجها الآن. لو أنني أستطيع مساعدة تلك الفتاة يا ماركوس فلن أعبأ بحنثي بقسم الأطباء، ولا بسرقتي من معملك، ولا حتى بخسارتي لحريتي.

انحنى هَينس على صورة فوتوغرافية وجدها أخيرًا بين الأوراق وأكمل حديثه:

- إن لم تحبسني الآن، فأنا أخطط لمقابلة والدة ماري قريبا، وأتعشم أن تتير مقابلتي لها الطريق.

- لكنني كنت أظنها يتيمة..

هارب.. آنا هارب.. مجددًا يدق الاسم أجراس ذاكرة ماركوس، لكنه لم يستطِع أن يحدد أين سمعه.

قال هَينس:

- أغلب الأطفال في ملجأ فان ترايلِن قد تم انتزاعهم من آبائهم بتهمة الإهمال أو القسوة، وماري لديها أم، أم شهيرة كذلك.. اسمها آنا هارب. بالتأكيد سمعت عن زيارتها لمستشفى القديس بيده من العميد.

- العميد لم يذكر المرأة مطلقًا.

- حقًّا؟ هذا الأحمق لا يزال مؤمنًا أن أي دعاية هي دعاية سيئة فيما يخص إعلان أي معلومة عن مستشفاه لكنني أفترض أنك تذكُر حكايتها. لقد أحدثت ضجة وقتها.

ظلَّ هَينس يحملق في الصورة وكأنما لا يستطيع أن يرفع عينيه عنها. أردف:

- عمومًا، وصلَتْ آنا هارب إلى المستشفى بعد دخول ماري. كانت قد قرأت عن الحادث في صحيفة ورأت صورة الطفلة. طلبت أن تقابلها، وحين رفضوا أصبحت عدائية وعنيفة، وظلت تصرخ وتزعم للشرطة أن أصحاب الملجأ قد خطفوا ابنتها وحطموا روحها النقية. أخرجها الرقيب جاكسون وممرضين قسرًا من البناية. ليتني كنت هناك يا ماركوس. لو أن لي فقط أن أتحدث مع المرأة وأعرف حقيقة مرضها، كنت سأفهم مرض ماري وأقدر على مساعدتها. أرجوك، امنحني الوقت الذي احتاج إليه يا صديقي.

ملأ الرجاء وجه هَينس مع رعشة عصبية في جانب فمه. قال مرتجفًا:

- امنحني فرصة يا ماركوس.. غّطني لعدة أيام. عندما تسمع تسجيل جلستي معها ستتفهم سبب إلحاحي على مساعدة تلك الفتاة.

كان ماركوس قد بدأ يتأكد من انعدام احترافية هَينس، وأنه لا يوجد ما يبرر ذلك أيا كان. قال ماركوس:

- سأستمع للتسجيل يا بيتر، لكنني لا أعدك بشيء.

أمسك ماركوس الصورة الفوتوغرافية ونظر إليها تحت الضوء. كانت صورة لسيدة سمراء تجلس أمام خلفيَّة بيضاء. يبدو أن من أسلافها من كان من أصل أفريقي، ويتجلى هذا في ملامحها الغليظة وشعرها الأجعد. كانت تنظر للكاميرا نظرة خاوية شاردة كأنها تحت تأثير مُخدِّر أو تنويمٍ مغناطيسي.

قال بيتر هانيس:

- هذه هي أم مريضتي، والدة ماري فالي الحقيقية.

التفت ماركوس نحو قصاصة من جريدة مهترئة قديمة، تحوي خبرًا عنوانه: قلق عام يسبِّبه إطلاق سلاح قاتلة خطيرة.

الفصل الثالث

بحلول التاسعة مساء، صار الجو باردًا رطبًا. تصاعد الضباب من النهر، بينما يهدر القطار عابرًا من فوق الجسر، وكانت المباني على الضفة البعيدة مخفية خلف الضباب والسماء الحالكة.

سينزل المحطة التالية.

نظر بيتر هَينس إلى خريطة المحطات، ثم ألقى بعقب سيجارته أرضًا ودَعَسه بحذائه. كان يشعر بخليط من مشاعر القلق والحماسة والرضا عن النفس. كان قلِقًا لأن حالة ماري فالي في تطوُّر مستمر، ومتحمسًا كون هذا التطور قد يساعد في تشخيصه لمرض الفتاة، وكان راضيًا عن نفسه؛ لأن.. لا.. فهو لم يعد قادرًا على الشعور بالرضا النفسي بعد كل الإحباط الذي غزا حياته السابقة.

ثلاث زيجات فاشلة، وإحدى عشرة وظيفة لم يستمر فيها بسبب معاركه غير المثمرة، ولا بُدَّ أنه سيخسر معركة ماري فالي ضد الجنون كذلك. لكن لا زال هناك أمل، والأمور لم تنحدر إلى سوءٍ بَعدُ.

كان ماركوس قد هزَّ رأسه عندما أنهى سماع التسجيل الذي يعج بالولولة والبكاء والصراخ، وذِكر أهوال الاحتراق والألم.

قال:

- حسنًا يا هَينس، أتفق معك أن الفتاة تبدو في كرب عظيم، وسأغطي عليك كما طلبت. سأذكر في تقريري أن ماري تعاني من حساسية عصبية لا يمكنني تحديد نوعها بدقة، وسأوصي بعزلها في المستشفى حتى يختفي الطفح الجلدي، مما سيمنحك حوالي ستة أيام لإثبات وجهة نظرك. حظ سعيد يا بيتر.

سلَّم ماركوس على بيتر هَينس في عجالة، وغادر الشقة دون كلمة أخرى.

لذا، كل شيء يسير في اتجاة مقبول. طلبت أخوية فان تاريلِن رأيًا طبيًّا آخر، إلا أن طبيبهم أكد ما شخَّصه ماركوس وأيَّد ما أوصى به.

الآن لم يتبقَّ أمامه سوى أربعة أيام كي يعرف ما استحوذ على عقل ماري فالي، والليلة ربما يحصل على مفتاح لسبر غور الغموض الماثل أمامه.

يا له من وقتٍ قصيرٍ، ذاك الذي تبقى أمامه ولم يصل لشيء بعد. طفلة تبدو سليمة تمامًا في يقظتها، لكن خلال نومها أو تحت تأثير العقاقير، يتبدى المرض شرسًا خبيثًا. حلمها المتكرر عن النيران والحيوانات الحبيسة الصارخة، والباب المعدني المحمرّ، وكل تلك التفاصيل الرهيبة تُبعِد تمامًا احتمالية أن تكون قد سمعت بتلك القصة من أحدٍ أو قرأتها في مكانٍ ما.

يذكر هَينس حالة تم توثيقها في باريس بعد الحرب. عامل هندي أجريت له عملية جراحية لإزالة ورم في المخ، وكانت عائلته – لمدة أجيال كاملة- قد عاشت في فرنسا وصارت الفرنسية هي لغة عقلهم

الباطن منذ دهر. إلا أن الرجل بدأ يتحدث الهندية بطلاقة تحت تأثير مخدر الجراحة. هل تحلم ماري بشيءٍ قد حدث لأسلافها منذ أعوام أو قرون؟ يعتبر هَينس نفسه إنسانًا مُتحضرًا، لكن كل يوم يُمضِيه مع ماري فالي، يزيد اقتناعه بأن حالة الفتاة تحتاج رجل دين لا طبيب.

وصل القطار إلى ثيمس فال، محطة داخل نطاق لندن، لكن الأشجار والأحراش الكثيفة المتبدية من خلف نوافذ القطار تعطي انطباعًا أن المحطة في وسط الريف.

خرج ثلاثة ركَّاب فقط من القطار- امرأتان ورجل سمين يرتدي معطفًا من فراء الحملان الصغيرة «الأستراخان»- أعطى هَينس تذكرته لمراجع التذاكر، الذي بدأ يصف له وجهته بدقه قائلًا:

- ستسير بشكل مستقيم حتى تصل إلى فندق التاج، من بعده ستتجه يسارًا حيث كنيسة القديس مارك ثم اتجه يسارًا مجدَّدًا.. وتذكَّر، كنيسة القديس مارك لا القديسة ماري وإلا ستتوه! أكمل سيرك من عند الكنيسة حتى ترى محلات ميسون عند الناصية، ثم انحرف يمينًا من جوار حانة الثور والدّب..»

ضلَّ هاينز وسط التفاصيل والاتجاهات، لكنه أدرك أنه لو سار بمحاذاة النهر سيصل.

نعم، لقد كانت ليلة سخيفة، وستكتمل في ذات الاتجاه. الظلام والضباب يجثم فوق كل متنزة، ويغلِّف المصابيح كالفراء. ليلة كليالي تشارلز ديكنز التي يولي فيها أبطاله وجوههم شَطر مهام مشؤومة.

وصف الكاتب الشهير ديكنز إحدى شخصياته بـ (حيوان بري مرَوَّض)، ويبدو أن هاينز في طريقة لمقابلة شخصية من نفس الطراز. كانت آنا امرأة ذات ميول للبغي والسرقة والتحرش، وكل ذلك قد مارسته قبل أن تصل لسن التاسعة عشر. وقبل وصولها لعمر الواحد والعشرين صارت قاتلة. لكنها الشخص الوحيد القادر على مساعدته ليفهم حالة ماري، وكان محظوظًا كونه استطاع أن يعرف مكانها بهذه السرعة بمعاونة جاره مفتش الشرطة المتقاعد ميلتون.

قال له ميلتون إنها كانت عاهرة ذائعة الصيت، تعمل مع قوَّاد يدعى آلفي بيتس، وكانت تحبه. على جانب آخر، أدرك آلفي ما تعانيه آنا من تأرجحات مزاجية عنيفة، وتصرفات تبعث على الخوف، وهجرها إلى علاقة مع مُضيفة يونانية تعمل في ملهى ليلي في سوهو.

وشَى صديقٌ لها عن مكان الرجل، فأحضرت آنا بندقية أوتوماتيكية، وتعاطت خمسة عشر قرصًا من عقار الديناميل.

ذهبت إلى الملهى الليلي وأفرغت بندقيتها على جسدي آلفي وعشيقته. خلال ذلك تلقى الساقي شظيةً في منتصف جبهته. تم الحكم على آنا بالحبس مدى الحياة في مستشفى برودمور للصحة النفسية، لكن بعد عشرة أعوام، زار المستشفى فريقٌ من الأطباء وأوقعوا الكشف عليها مرة أخرى وأكدوا أنها سليمة تمامًا، وتم إطلاق سراحها.

سأل ميلتون هَينس وهما جالسان في الحانة الهادئة:

- هل تود الحديث معها يا سيد هَينس؟ أحضر لي دليل الهاتف من الكابينة وسنرى ما يمكن فعله.

- أشكرك، أظن فعلًا أن عنوانها قد يكون مُسجَّلًا فيه.

ارتدى المفتش نظارته الطبية، وراح يقلّب في الدليل قائلًا:

- أغلب المجرمين يغيرون أسماءهم عندما يُطلَق سراحهم، لكن هذا لم يحدث مع السيدة هارب، والتي تعمل الآن كمستبصرة وقارئة طالع. ربما يكون في العالم عدد كافٍ من المخابيل الذين يحبون أن يقرأوا طالعهم عند قاتلة مجنونة، فهي قد بنت شهرتها وعملها على تلك السمعة! آه.. ها هو العنوان.

سرقة، بغاء، تحرش، قتل.. هذه هي أم الطفلة شقراء الشعر التي أخذوها منها وأودعوها دار رعاية أيتام. الطفلة الصغيرة التي تحلم بالنيران والحيوانات المُعذَّبة والتي قد.. والتي يمكن أن تكون قد غرست سيجارة مشتعلة في خَد سائق حافلة يُدعى فرانك رينولدز.

سار هَينس حسب العنوان، حتى دلف إلى ساحة مُظلمة مُعشوشِبة، ومر بجواره ثلاثة صِبية يدفعون عربة أطفال على متنها مجسمٌ مرعب يرتدي قناعًا من الورق المُقوى ويعتمر قبعة سوداء مستديرة.

صاح الأطفال:

- أعطِنا مليمًا للرجل..

- سأعطيكم شِلِنًا لو أرشدتموني لمكان حانة الزهرة والتاج.

لم يكن هَينس متعاطفًا مع السفاحين الصغار، لكنه كان قد ضلَّ الطريق.

خطفت يد صغيرة العُملة المعدنية من يده، وصاح صاحبها متسائلًا بصوت طفوليٍّ حادٍّ:

- الوردة والتاج؟ سِرٌّ عبر الأعشاب من هنا، ثم دُر يسارًا نحو النهر وستجد أمامك الأرض المخصصة للمعارض، لكنها ستكون مغلقة الآن فلا معارض في الشتاء.. المهم، ستجد الحانة جوارها.

رأى الأطفال الرجل ذا معطف فراء الحملان، والذي كان مع هَينس في القطار، يسير على الرصيف، فعدوا نحوه يستجدون مليمًا آخر.

وصل هَينس لأرض المعارض ووجدها بالفعل مُغلقة، وكانت عبارة عن أرض خَربة على ضفة النهر، رأى فيها لعبة خيلٍ دوارة لم تغطَّ قبل هجر المكان، وكانت أعين الخيول الخَشبية المقشرة تحدق فيه عبر الضباب. كان منظرًا مشؤومًا، ولم يبدِّد ثِقله إلا أنوار الحانة جوار أرض المعارض.

***

سأل الساقي الآيرلندي هَينس:

- ماذا توَدُّ أن تشرب يا سيدي؟

وصل هَينس مبكرًا عن موعده، وراح ينظر حوله للمكان نصف الممتلئ، والراقصون على الساحة. كانت ليلة سبت معتادة في الضواحي، أغلب من يرتادون هذه الأماكن هم رجال ونساء في منتصف العمر، أما الشباب الصغار فهم قِلة. كانت الأجواء مريحة مُرحِّبة حتى فُتِح الباب ورأى السيدة التي

جاء ليقابلها تدخل منه. كانت تتحرك برشاقة ومن خلفها رأى الرجل السمين ذا معطف فراء الحملان يسير محاذرًا الاصطدام بالحشود.

***

- الطفلة ماتت أيها الطبيب، سرقت الشؤون الاجتماعية والشرطة ماري الحبيبة مني، وأعطوها لقاتليها!

أنهت آنا هارب كأسها مزدوج الجرعة من الجن خلال نصف ساعة. كانت امرأة كبيرة الحجم، غليظة الملامح كما رآها في الصورة بالضبط. يبدو أن قراءة الطالع تُدر عليها مالًا وفيرًا، وكان هذا ظاهرًا من معطف الفراء الأسود الذي ترتديه، ومن الدبوس الذي يثبت قبعتها، والمتوج بحجرٍ كريمٍ أحمر ظنَّه هَينس ياقوت هندي. أردفت آنا:

- لديَّ قدرات استبصارية، وأكسب لقمة عيشي مما يسميه الجهلة قراءة الطالع. وموقنة بوفاة ماري. لهذا لم يدَعوني أدخل المستشفى.

- الطفلة حية وبصحة بدنية جيدة يا سيدة هارب، لكنها تحتاج إلى مساعدتك بشدة.

أرغم هَينس نفسه على الابتسام للوجه الغليظ. صوت الموسيقى يهدر عبر السقف، والحجرة حارَّة مُزدحمة مُعبقة بدُخان التبغ والصداع.

لم يكن الرجل السمين ذو معطف فراء الحملان آتيًا مع آنا هارب كما ظن في البداية. كان واقفًا هناك عند المشرب ممسكًا بزجاجة خمر بالكاد ترى وسط أصابعه العملاقة، يرمق الراقصين في تلذذ واستمتاع.

قالت آنا:

- يمكنك أن تزعم ما تريد، لكنني لن أصدقك إلا إذا رأيتها.

خلعت المرأة معطفها، كاشفة عن عضلات ذراعيها الرجوليتين المُطلتين من فستانٍ بلا أكمام، ثم أضافت ضاحكة بصوتٍ عالٍ:

- تقول إن ابنتي مهووسة بالنيران والحيوانات المعذَّبة وتحلم بهما، وقد أدى ذلك لوفاة شخص لأنه قد أشعل سيجارته في وجودها.. الابنة شبيهة أمها، أليس كذلك؟ عمومًا لقد كنت أفضل منها، فقد قتلت رجلين وشيئًا يدَّعي أنه امرأة. لعشرة أعوام كنت أتعفن في مصحَّة قذرة حتى جاء رجل مهذب مثلك وقال إنني عاقلة، ومن ثَم أطلَقوا سراحي، وما كانوا ليفعلوا لولاه. سأكون شاكرة للأبد لأمثالك أيها الطبيب.. وسأكون شاكرة أكثر لو ملأت لي كأسي.

- آه.. بالتأكيد..

قام هَينس سعيدًا بهروبٍ مؤقتٍ منها، ثمة شيء منفر في تلك المرأة بعيدًا عن مظهرها الشنيع، شيء في شخصيتها لاحظه منذ أن دخلت المكان. الأمر يشبه أن تكون بصحبة قطٍّ كبيرٍ، سيظل راضيًا

هادئًا طالما تطعمه وتمسِّد فراءه باستمرار.. أبعِد الطعام أو اسحب يدك فتجد القط قد تحوَّل لكتلة مخالب. كان يتفهم نجاحها كقارئة طالع. الناس تحترم مَن تخاف، وآنا هارب هي الفزع ذاته.

قال هَينس للساقي:

- كأس مزدوج من الجِن لو سمحت.

انتظر حتى يأتي الساقي بطلبه، ولاحظ أن بعض الناس قد غادروا، وبعضهم غيَّر مكانه، وآخرون قد جاءوا لقضاء سهرتهم. فقط ظلَّ الرجل السمين في مكانه، يراقب المكان من مكمنه كأنما يراقب قرود تجاربٍ حبيسة.

عاد هَينس فتناولت آنا المشروب منه قائلة:

- شكرًا لك أيها الطبيب. لكن لم قد تكون ماري مهووسة بالنيران؟ ليس لدينا نيران كبيرة حيث نسكن في الكرفانات، فقط مواقد غاز أو سخانات كهربية. كنا نسكن كارافانا جميلًا وكانت ماري سعيدة معي فيه، وأحيانًا ما كان والدها يزورنا. بحار دنماركي هو متزوج في كوبنهاجن، لكن السفينة التي يعمل عليها دائمة الرُّسو في ثَيمس. ربما ورثت مني ماري بعض مواهبي أيضًا، كنت لأعلمها الاستبصار ورؤية المستقبل.

دمعة انحدرت فجأة على خدها الأسمر، فأحالت نظرها بعيدًا عنه مردفة:

- تمنيت أن أفعل الكثير لابنتي، لكنهم أخذوها مني. قالوا إنني غير لائقة للتعامل مع الأطفال لأنني شغوفة بالرجال. وهل تلك جريمة أيها الطبيب؟!

- كلا.. ليست جريمة.. لكن قد يبدو تعرُّضها لذلك الشغف مؤذيًا بالنسبة لطفلة صغيرة.

موهبة الاستبصار؟ هل دربت المرأة ماري على تلك الموهبة، وكان هذا التدريب هو السبب في مرض الطفلة؟

تلك التدريبات مع المرض وبعض العقاقير قد يؤدي لهلاوس، التحديق المستمر لساعاتٍ في بلورة سحرية أو حبرٍ على سطح ماء قد يؤدي إلى رؤية مَشاهد مُتخيَّلة. أضِف لكل هذا وجوه الرجال المتغيرة على وسادة أمها.. هذا عمك دِك، هذا جوستاف.. كورت.. تعالي وقبِّليه يا عزيزتي.

- لماذا تصرين على أن الفتاة قد ماتت يا سيدة هارب؟ أنا أعطيك كلمتي وأقول لك إنها حية تُرزَق.

-لأنني رأيتها يا سيدي الطبيب. عندما وصلت مجموعة أطفال الملجأ إلى لندن، كان ثمة خبر عنهم في الجريدة مرفقٌ به صورة للأطفال خارج الفندق الذي يقيمون فيه. كان مكتوبًا في الخبر أن عددًا من العجائز الأثرياء قد جدَّدوا قصرًا في إسكتلنده وأحالوه ملجأ عظيمًا للأيتام. ذهب إلى الفندق وانتظرت خارجه، بعد ساعة رأيت الأطفال خارجين، ورأيت ابنتي وسطهم.

رفعت المرأة كأسها مجددًا إلى شفتيها وأفرغته سريعًا كأنما تقوم بطَقسٍ سِحري. لاحظ هَينس أنها أفرغت الكأس كاملًا في ثلاث جَرَعات فقط.

- وهل رأتك ماري أو تعرفت عليكِ؟

تساءل هَينس وقد جاء في خاطره أن هناك منعطفًا آخر للقصة. هل رأت ماري أمها التي لم ترَها منذ ثلاث سنوات؟

- لم ترَني.. لكنني رأيتها ونظرت في عينيها وأبصرت مستقبلها. ربما لا تقتنع بأمور ما وراء الطبيعة، لكنني استطعت أن أقرأ مصيرها بكل وضوح. رأيت أن ماري ستموت، ومَن أخذوها مني هم من سيقتلونها.

- لم أكن ميَّالًا قَط للخوارق يا سيدتي، لكن ماري حية ومحجوزة في المستشفى.

أشعل هَينس سيجارة ليخفي توتره، ومن خلفها رأى الرجل السمين عند المشرب يرفع حاجبيه كأنما قامت القرود التي يراقبها بفعل شائن.

المهم أن جيليز جايتلِن، المشرِف على لجنة الأطباء النفسيين الذين أوصوا بإطلاق سراح المرأة، مجنون هو الآخر كي يُقرّ بأن تلك المرأة عاقلة. الماثلة أمامه مصابة بالبارانويا ولا زالت خَطِرة.

- ثم قرأتِ عن الحادث، وحين منعوكِ من رؤيتها استنتجتِ أنها قد ماتت. غدًا صباحًا آخذك لتريها وتتأكدي أنها حية.

شعر فجأة أنه مُفرَّغ من القوة. لم يجد أمامه سوى المواجهة، وصدمة رؤيته ماري لأمها قد تساعد وتكشف الكثير عن حالة الطفلة، لكنها أيضًا قد تُدَهوِر حالتها.

- ساعتها فقط سأصدقك.

كان وجهها الأسمر خاليًا من التعبيرات، لكن ظلت عيناها مثبتتين إلى عينيه في ثقة تميز نظرة المجانين. سألت آنا:

- لنفترض -جدلًا- أن ماري حية، وتقول إنها تحلم بغرفة مغلقة تحترق، أليس كذلك يا دكتور؟ الباب مُحمر بفعل الحرارة، وخلفه حيوانات تُحرق حتى الموت. أين يمكن لابنتي أن تكون قد تعرضت لموقف كهذا؟ عمومًا، سنذهب للمستشفى صباحًا، لكن قل لي.. أنت لا تظن أن ماري مريضة عادية، أليس كذلك؟ هناك ما أفزعك فيها.

- نحن نخاف كل ما لا نستطيع فهمه.

لاحظ هَينس استخدامها للزمن الماضي في صياغتها لعبارتها الأخيرة، ولم يجد تفسيرًا. لكن المرأة مُحِقَّة.. كل دقيقة يقضيها في سماع تسجيل جلسته مع ماري يزداد تأكُّده من أن نظرية كارل يونج: النمط البدائي، هي التفسير الوحيد. ما تراه ماري ذكرى ورثتها من أحد أسلافها.

وهذا حقًّا غامض حد الفزع.

- غدًا سنقابل ماري سويًّا وستساعدينني في فَهم حالتها.

- سنفعل أيها الطبيب.. لو كانت حية.

أخذت آنا هارب معطفها المُعلق على ظهر الكرسي، ثم وقفت أمامه ولم تتحرك نحو الباب. ظلت ناظرة إليه، وشعر بانجذابٍ غريبٍ نحوها، وفهم أخيرًا سر نجاحها كعاهرة. على الرغم من نفوره منها في البداية، شعر برغبة حيوانية عارمة تجاهها.

قالت له:

- للننسَ ماري قليلًا ولنستمتع. يقولون إن الطابق العلوي يظل مفتوحًا حتى بعد مواعيد إغلاق المكان عند منتصف الليل. لنصعد سويًّا ولنشرب ونرقص، وبعد وقتٍ لن تراني منفرة كما تراني الآن.

قبضت اليد التي قتلت ثلاثة أشخاص على يد هَينس، وجذبته نحو سلمٍ صاعد في نهاية القاعة. قبل أن يصلا إليه التفتت وابتسمت له مرة أخرى.

- سأروق لك أيها الطبيب، هذا وعدٌ. لكنني أيضًا أتوعدك.. لو أنك كذبت عليَّ واكتشفت أن الفتاة قد ماتت، سأقتلك.

***

- فندق كلارك؟ هل اللورد مايكل فاونلي لا يزال مقيمًا عندكم؟ أشكرك..

في اللحظة التي كانت فيها آنا هارب تقود هَينس لساحة الرقص، انسحب الرجل السمين خارجًا من الحانة، متجهًا نحو كابينة الهاتف.

أكمل الرجل حديثه الهاتفي:

- اسمي فورست، جون فورست.. أريد أن أتحدث مع اللورد فاونلي لأمر عاجل.

شخصٌ آخر أخذ السماعة من عامل الاتصالات في الفندق، واضطرَّ فورست أن يعيد عليه كل ما قاله، ثم أضاف:

- أستميحك عذرًا..؟

استمعَ فورست لما يقوله الطرف الآخر، واحمر وجهه غضبًا وهو يهتف:

- يقول مستخدمك إنه لم يسمع بي من قبل، وإنه لا يستقبل مكالمات هاتفية من غرباء؟! حسنًا، اطلب منه أن يقرأ جريدة «الصدى اليومية»، وأخبِره أن اتصالي بخصوص طفلة من المفترض أنها في رعايته. قل له أن يأتي ليحادثني فورًا لو سمحت.

تذكر الرجل أن فاونلي كان منضالًا في طريق الإقلاع عن تعاطي الكحول، فأضاف لمُحدّثه:

- هذا إن كان واعيًا كفاية لإقامة محادثة عقلانية.

الفصل الرابع

كان مايكل فاونلي مُسنًّا مُتعبًا، ولا يقدر على الشعور بغضبٍ حقيقيٍّ الآن. أزعجته مكالمة فورست لكنها لم تضايقه، فقد مرَّت سنين طويلة لم يشعر خلالها سوى بالقلق العميق.

غاصَ في كرسيه وهو يستمع لزائره، وفي عقله مرت ذكريات عمره الطويل، الذكريات التي جعلته ما هو عليه الآن.

المال والعمل والعرق، ومعرفة أن أول ألف جنيه يملكها مُودَعَة في البنك، ويستطيع أن يبدأ بها عمله المستقل. متعة التخطيط والمقامرة والتفاوض، ومراقبة العمل يزدهر ويبني إمبراطورية كاملة.

سَبكُ الحديد والشحن في تاينسايد، الطواحين في جلاسجو، السيارات في ميدلاندز، بنكين في لندن. كوَّن إمبراطورية عملاقة بالفعل ولم تتعرض إحدى شركاته أو مصانعه لأزمة حقيقية مطلقًا.

وكان لديه ذكريات خاصة كذلك، الكثير منها. حبه الشديد لزوجته، والإحباط المرير الذي أصابه بسبب حادث الصيد الذي حرمها من الإنجاب. ثم ماتت مولي منذ خمسة عشر عامًا، وتركته وحيدًا بلا حب.

والذكريات الأقدم، الذكريات المُفزِعة، عادت من جديد..

الرجال ذوو البذلات السوداء ينحنون مصلّين. مواعظ أبيه والكتابات المعلَّقة على حوائط حجرته..

«شيءٌ مريع أن تسقط بين يدي إله غيور.»

«ذنبٌ واحدٌ قد يودعك الجحيم للأبد.»

هراء.. هكذا يخبره المنطق. تلك كلمات جنون وعنصرية وهمجية، لكنها لم تكن هراء بالنسبة لطفلٍ صغيرٍ مُرتعِب، ولا بالنسبة لرجل مُسن شارفت نهايته.

لكن أخيرًا جاء الخلاص. هيلين فان ترايلِن تحدثت إليه وأبعدت عنه الخوف، فهناك أملٌ للخلاص من مصير الجحيم الأبدي، وكانت الأخوية التي أسستها هي السبيل.

في البداية جاء دعَم الأبحاث الطبية، ثم حفظ حقوق الفنون، ثم دور رعاية المسنين، ثم تلا ذلك العديد من المساهمات الخيرية. تلال من أعمال الخير ترتفع لتحميه من بطش إله العصور الوسطى هذا. أخيرًا جاء وقت المؤسسة الخيرية لرعاية الأيتام، ووقت معرفة أن الخلاص دومًا له ثمن.

دفع بذكرياته جانبًا ونظر إلى ضيفه قائلًا:

- أهذا هو كل ما تريد إبلاغنا إياه؟

من حوله كان أصدقاؤه ورفاقه في الجمعية الخيرية: سيلفيا راينهارت أرملة مليونير، إيريك بيتس جرَّاح شارع هارلي المُتقاعد، جورج لِكولُس صاحب خيول السباق الرابحة دومًا. هؤلاء هم أخوية

فان ترايلِن الذين اجتمعوا دومًا من أجل خلاص أرواحهم. وأمامهم جون فورست، يجول في أرجاء حجرة الفندق وكأن العالم مِلكه.

قال:

- أنا بالكاد أعدت ترتيب الحقائق التي تعرفونها يا سيدي، وكل ما أريد هو التصريح بالنشر.

كان فورست قد حاور كثيرًا من الملوك والأباطرة، ولم تكن السطوة أو القوة تفزعه، بل لا تعني له شيئًا. لكنه كان يحترم الثروة، وعلى الأقل ثلاثة مليونيرات ينظرون إليه الآن. وجوههم المُسنّة تفزعه قليلًا لكنه كان يُخفي هذا عنهم.

أردف:

- الطفلة ماري فالي لا زالت في مستشفى القديس بيده على الرغم من معارضتكم لحجزها. الجروح التي تعرضت لها جراء الحادث كانت سطحية، وطبيب دار الرعاية خاصتكم أقر بأن الفتاة في تمام صحتها العقلية. راجعت السجلات عن ذلك الإخصائي النفسي هَينس، وكل شيء يشير إلى كونه شخصًا غير مُتزنٍ بالمرة. والآن السير ماركوس لَفين أكد إصابتها بحساسية غامضة، وأجبر القُضاة على الموافقة على حجز الطفلة. بالنسبة لي، فكل ما يحدث له رائحة نَتِنة تتصاعد إلى عنان السماء، وجريدتي توَدُّ أن تُدين مستشفى القديس بيده.

كان ثمة نبرة هادئة في صوت اللورد فاونلي وهو يقول:

- وهذا آخر ما نريده سيد فورست. هناك تدخُّل غير مِهني من هَينس كما وضحت أنت، ربما كان هناك إهمالٌ كذلك، لكن أخويتنا لا تحتاج لدعم من دعاية صحفية. الطفلة سوف تسرح فور اختفاء الطفح الجلدي، ولن نحتاج لعراك مع سلطات المستشفى.

ابتسم فورست في سرِّه وقال لنفسه: حقًّا؟ لماذا يعارضون الدعاية الصحفية؟ أيريدون إخفاء شيء؟ ربما كان هَينس مصيبًا وتعاني ماري فالي بالفعل من حالة عقلية خطيرة، وسيترتب على ذلك نزع الطفلة من وصايتهم للأبد.

قال فورست:

- لا تعتبرها وقاحة مني، لكن هل الإخصائي النفسي الخاص بكم في دار الرعاية مؤهل بشكل كافٍ؟ هل ثمة احتمال أن يكون ادعاء بيتر هَينس صحيحًا؟ عمومًا خلفية حياة الطفلة مشئومة أصلًا خاصة لو...

قالت السيدة راينهارت:

- نحن لا نناقش هنا خلفيات حيوات أطفالنا سيد فورست.

كانت صغيرة الحجم، لطيفة للغاية، تشبه العجائز اللاتي يصنعن الجوارب والسُترات أمام المدفأة، واللاتي لا ينسين أبدًا أعياد الميلاد.

لكنها الآن كانت غاضبة للغاية وهي تضيف:

- أغلب أطفالنا يأتون لنا تاركين خلفهم ماضيًا قاسيًا أو حتى عائلات إجرامية. لهذا السبب نتولى رعايتهم في دار رعاية ولا نسمح بتبنيهم في بيوتِ أُسَر. لكنهم جميعًا طيبون أصحاء، وماري من أفضل الأطفال عندنا. أنا أمنعك منعًا باتًا من ذِكر كلمة عنها أو عن أهلها.

- سيدتي، لن أكتب شيئًا بدون تصريح منكم.

أومأ فورست ثم نظر إلى لوحة عملاقة بألوان الزيت، مُعلقة فوق مدفأة. كانت تُمثل سيدة بيضاء الشعر تقف أمام خلفية من زهور صيفية. كانت هي، السيدة هيلين فان ترايلِن، مرتدية فستانًا صيفيًّا أبيضَ، وزوج من القفازات يصلُ إلى كوعيها، وتبدو كأنما تعدَّت السبعين من العمر أثناء رسم تلك اللوحة لكنَّ سمتًا طفوليًّا كان يعلو وجهها الباسم.

لماذا يأخذ فاونلي لوحةً كتلك معه في الفندق؟! هل كان يحبها، أم يعامل اللوحة كطلسم جالب للحظ، مُبعد للشر؟

الأخوية نفسها في حاجة إلى حماية مؤخرًا، فيبدو أن لعنة ما تطاردهم. أولًا انتحار السيدة هيلين، بعدها وفاة وصي آخر هو الكولونيل أندرسُن سقوطًا من شُرفَتِه، بالإضافة إلى وفيتين غامضتين، ثم أخيرًا مشكلة تلك الطفلة.

قال فورست:

- أنا في صفكم يا سيدتي، أريد أن تستعيدوا الطفلة من براثن المستشفى. تخميني أنهم لن يُسرِّحوا الطفلة بالسرعة التي تتصورونها. تذكَّروا أن ماركوس لَفين صديقٌ مقرَّب لهَينس، وكل ما يحتاج هَينس لحجز الفتاة هو طفحٌ جلدي معدٍ كي يستخرج أمرًا قضائيًّا بالإبقاء على الفتاة في حوزتهم.

قال جروج لِكولُس بلكنة فرنسية خفيفة للغاية:

- سيد فورست، لقد حلَّقت أفكارك بعيدًا عن أرض الواقع. الطفلة بالفعل مصابة بطفح جلدي، ولا يسَعك الادعاء أن السير ماركوس قد أصابها به عمدًا. عامة، لقد أعطانا العميد كلمته بأن ماري ستخرج فور شفائها، وستنضم لرفاقها في سكوتلنده وتحضر الحفل السنوي معهم.

ابتسمت السيدة راينهارت للوحة، ونسيت غضبها السابق قائلة:

- ألم تسمع بحفلنا يا سيد فورست؟ أنت تعلم أن مجلس الأوصياء كلهم من الأثرياء العجائز الذين لم يُرزقوا أطفالًا. وقبل أن تجمعنا هيلين فان ترايلِن كنا أشقياء تعساء. لكنَّ شقاءنا انتهى منذ زمنٍ واسم أخويتنا يعكس علاقتنا ببعضنا البعض، نحن إخوة ورفاق.

كذلك نؤمن أن اؤلئك الأطفال أطفالنا، وفي كل عام نزورهم في جزيرتهم ونحتفل بيوم مولد مؤسسة أخويتنا. كل الأوصياء والأطفال يجتمعون في هذا اليوم، وستكون روحُ هيلين حاضرةً كذلك برغم فناء جسدها. أتظن أن ما أقول هو محض شاعريّة وحمق؟

- أبدًا.

فكر فورست أنه كلما كبر البشر، كلما تعلقوا بالأحلام وصاروا أقرب للطفولة. السيدة راينهارت تتطلع إلى الحفل تَطلُّعِ الأطفال، وقد نبذت تفاصيل موت رفيقتها عن ذهنها. هيلين فان ترايلِن ماتت مَيتة بشعة، ولو أن روحها ستكون متواجدة، ستكون روحًا مُثقَلة مهمومة.

أردف فورست:

- ما يثير تعجُّبي هو قلة اهتمامكم بمصلحة ماري فالي. فطالما ستسرحها المستشفى قبل موعد الحفل، فلا مشكلة لديكم، بغض النظر عمَّا سيحدث لها خلال تلك الفترة التي ستُعزل فيها. ربما تكون الطفلة في حالة عقلية لائقة كما تزعمون، لكن هل ستظَلّ على تلك الحالة بعد عدة أيام من علاج هَينس؟!

طرق إيريك بيتس بقبضته على الطاولة، وككل الجراحين كان أصابعه قوية عريضة. صاح:

- لن تتعرض الفتاة لمزيد من ذلك العلاج. لقد تحدثت مع برايان بلُنكيت، عميد المستشفى. نحن متفاهمون على نحو خاص. وقد اتفقنا على ألا يقرب هَينس أو غيره من المعالجين النفسيين ماري فالي، مع السماح لنا بزيارتها وقتما نشاء، ليلًا أو نهارًا.

ابتسم فورست وأعدَّ نفسه لإلقاء قنبلة وقال:

- أوصي بزيارتها بنفسك في القريب العاجل يا دكتور بيتس. ممرضات وعمال المستشفى يتحدثون كثيرًا، ويبدو أن السيد هَينس رجلٌ نافذٌ. مما علمته، أنه مهتم للغاية بحالة ماري، لذا تبعته الليلة مُراقِبًا!

أشعل الرجل السمين سيجارته وامتص الدخان في جشع وأردف:

- قادتني مراقبته لحانة بالقرب من ثيمس فال، وهناك قابل سيدة. كانت الحانة صاخبة، لكنني كنت مُعتادًا على قراءة حركات الشفاه.

نفث الدخان عبر الطاولة، ونظر إلى عيني اللورد فاونلي قائلًا:

- بكلمة العميد أو بدونها يا سيدي، وبوعده أو بدونه يا دكتور بيتس، أغلب الظن أن هَينس يقابل ماري فالي بأمها.

توقع جون فورست رد فعلٍ عنيفٍ، ووجد ما توقعه. اختنق فاونلي بالغضب، وقام بيتس من كرسيه وهرع إلى الهاتف، وصدرَ من السيدة راينهارت صوتٌ ما بين الشهقة والتأوُّه. أشاح فورست بوجهه، ونظر نحو اللوحة الزيتية.. لأول وهلة شعر بغرابة في تعبير وجه هيلين، لكنه الآن أدرك أنها تخفي خوفًا ومعاناة شديدة خلف بسمتها. وتساءل أيضًا عن سبب ارتدائها قفازين بهذا الطول صيفًا.

الفصل الخامس

تنتمي تانيا لَفين لزمرة النساء التي تؤمنَّ أن الخط المستقيم أقصر الطرق بين نقطتين؛ لذا كانت قيادتها للسيارات بنفس الفلسفة؛ تخترق الطريق مسرعة ولا تؤمن بالتمهل أو المناورات.

صاح ماركوس وهو جالس جوارها في السيارة:

- تمهلي بالله عليكِ!

تعدَّت سيارة نقل ضخمة بسرعة شديدة أربكته، وشعر بحرج حين ابتسمت لسائق الشاحنة ذي الوجه المزرق فزعًا، والذي اعتبر ابتسامتها تهديدًا له. أردف ماركوس:

- رجاء تذكَّري أنك لست فقط حُبلى، بل ومتزوجة من رجلٍ مهم للغاية، ومتوتر كذلك.

نظرت تانيا لبطنها المنتفخة باسمة قائلة:

- لن أنسى كِلا الحقيقتين يا مارك. وتوقف عن إقحام القسَم بالله في أي موضع، أيها اليهودي الرِّعديد.

زادت من سرعة السيارة لتفادي حافلة، ثم مالت عليه وقبَّلته مُردفة:

- العميد أمر بأن تصل إلى المستشفى على وجه السرعة، أو كما قال: لأمر مُستعجل لا أستطيع مناقشته عبر الهاتف.

- لكنه لن يُسَر لو وصلت إليه ميتًا.

سمع ماركوس أن قيادة النساء المتهورة لها تأثير أكبر من تأثير الخيانة على هدم الزيجات، ووجد ماركوس نفسه يدعس مكابحًا وهمية تحت قدميه.

تُرى فيمَ يريده العميد هذه المرة؟ كلما فكَّر في خدعته كلما قلَّ شعوره بالذنب. لو أن الطفلة مريضة كما زعم هَينس، فلا بُدَّ من أن تتلقى علاجًا متخصِّصًا، كما أنه لا سبيل لكشف مخططه مع هَينس كذلك.

سلالة كاردوريلّا غير معروفة في إنجلترا وريدفورد- سميث. حتى إن الطبيب الذي أرسلته جمعية فان ترايلِن قد صدَّق على تشخيصه، وأوصى بأن تظل ماري في المستشفى حتى تُشفى.

لكن ماركوس كان قلِقًا مُكتئبًا هذا الصباح. فكل شيء حوله مُكلَّل بالغيام الداكن الذي يُنذِر بعاصفة رعدية قادمة.

لم يفوِّت شيئًا هامة من مواعيد الفترة السابقة إلا موعده في معمل الأبحاث المركزي، لكن عمل ستة أشهر أسفر عن فشلٍ جديدٍ على أي حال.. مجرد سلالة من الأجسام المُضادة سريعة التأثر بالمضادات الحيوية البسيطة.

كانت هذه التجربة كابنٍ عقلي له، وفشلها جرَّ خلفه سلسلة من الأحداث التّعِسة.

كسر صوت زوجته حاجز شرودة:

- ها قد وصلنا بسلامٍ. هل أدخل معك وأتناول كوبًا من الشاي؟

- الأفضل أن تنتظري في الكافيتريا يا حبيبتي. يبدو أن بلَنكيت غير راغبٍ في التواصل الاجتماعي اليوم. وأسدي لي صنيعًا يا تانيا وانقلي السيارة من أمام المدخل قبل أن تثيري غضب الجميع.

أشار ماركوس إلى لافتة «ممنوع الانتظار – مخصص لسيارات الإسعاف». ثم هرع إلى المدخل.

***

- تفضل يا سير ماركوس، اجلس.

لم يكن مألوفًا عن العميد أن يُعِد جِلسة دون أن يدعو ضيفه لسجائر أو مشروبات. كان واقفًا متحيرًا في منتصف مكتبه، في ذات المكان الذي تركه فيه ماركوس آخر مرة، وشعر الأخير شعورًا غامضًا بأنه سيقضي اليوم في هذا المكتب.

- إنه الأخ المخبول هَينس والطفلة ماري مجدَّدًا. كان ما حدث خطأ منذ البداية، وها هي الأمور تتدهور سريعًا. لم يعصَ هَينس أوامري فقط، بل يزعم أنك تؤازره بقولك أن الفتاة تحتاج علاجًا نفسيًّا.

شعر ماركوس أن حَدسِه باقتراب سوء الحظ بدأ يتأكد. قال:

- بما أنني لا أملك علمًا بعلم النفسي، فلا يسعني أبدًا قول ذلك يا دكتور بلَنكيت. هَينس عرض عليَّ تسجيلًا صوتيًّا لجلسته مع الطفلة، وقد بدت لي ماري على غير ما يرام. لو أنها ابنتي لفضَّلت أن تتلقى علاجًا فوريًّا.

صاح الغُرير:

- لكنها ليست ابنتك يا سير ماركوس! ماري فالي تحت وصاية أخوية فان ترايلِن القانونية، وقد أعطيتهم كلمتي بأننا لن نعبث بعقلها طيلة إقامتها في المستشفى.

- هل أمرت هَينس بأن يبتعد عن الطفلة حقًّا؟!

قضَّب ماركوس جبينه، فقد أعطاهم تشخيصًا غير صحيح ليحمي بيتر هَينس ويمنحه وقتًا لدراسة الحالة، لكن الكذبة ذهبت سُدى.

- أخبرته أن لا شأن له بالطفلة أبدًا، وعليه أن يلتزم الابتعاد عنها، ووعدت الأوصياء عليها بأن أوامري ستُنفَّذ. والآن قد تبين لي أن هَينس لم يعصَ أوامري فقط، بل وأوقع المستشفى كلها في مشكلة عُظمَى.

التقط بلَنكيت غليونه من على المكتب، وأشار بطرفه نحو ماركوس كأنه سلاح. كان العميد ككلب شرسٍ غاضبٍ، مستعدًّا للقتال دفاعًا عن عرينه.

- تلقيت اتصالًا هاتفيًّا هذا الصباح من إيريك بيتس، وهو واحدٌ من مؤسسي أخوية فان ترايلِن، قال إنه قد وصلته معلومات تفيد أن هّينس يعتبر نفسه مسؤولًا عن حالة ماري فالي وينتوي استكمال علاجه لها. طالَب بيتس بإيقاف فوري لهَينس عن العمل.

- طالَب؟! كلمة قوية يا سيدي العميد.

- يجوز. لكنه يحمل السوط في يده. لو لم أوافقه فسيقاضينا بتهمة الإهمال الجسيم والتآمر يا سير ماركوس.

التفت العميد ونظر خلال النافذة الكبيرة إلى الساحة بالأسفل. كان والده مُستشارًا في المستشفى، وهو كذلك قد درس وعمل هنا أغلب حياته، وكان ماركوس يعرف أن مصلحة المستشفى همه الحقيقي.

- قال لي بيتس إن الصحافة تعرف القصة كاملة، ولو لم يتم إيفاق هَينس عن العمل اليوم، سيسمحون بالنشر. كذلك ستطالب الأخوية بتقرير مفصل عن الطفح الجلدي لدى الطفلة، عن الأسباب التي منعت مرض ماري عن عدوى رفاقها من الأطفال.

تحدث ماركوس واثقًا، لكنه لم يبدِ بهذه الثقة:

- الطفلة مصابة بحساسية ضد مادة ما لم أتعرفها حتى الآن.

لو سُمح لفريق من المُتخصصين بفحص الطفلة، لعرفوا الحقيقة. حينها سيواجه بيتر هَينس سجنًا وضياعًا حتميًّا لمستقبله، بينما هو نفسه قد يتعرض للإيقاف عن العمل باقي حياته.

تذكَّر كيف كان يعمل في غسل الصحون يوميًّا لمدة أربعة أعوام كي يوفر مصاريف دراسته، وتذكَّر طريقة الطويل للحصول على درجة الفروسية الفخرية والحصول أخيرًا على جائزة نوبل. يمكن لكل هذا أن يُمحَى ويُستبدَل بالفضيحة أو ما هو أكثر. من الصعب إثبات أنه قام بتشخيص مُضلِّل ليحمي صديقًا، لكن مجرد الشك في فعلةٍ كتلك ستلاحقه بالسوء ليوم وفاته.

عاد العميد لكرسيه وبدأ في مِلء غليونه قائلًا:

- لقد أعلنت تشخيصك، وطبعًا ستلتزم به وستساندك ريدفورد- سميث. لكن ماذا أفعل أنا؟ أنا مغتاظ من هَينس.. لا أحبه أبدًا، لكنني كذلك لا أريد تدمير حياته. سجله الحافل بتكرار تركه للعمل، بالإضافة إلى قرار إيقافه لن يُمكناه من أن يجد أي عمل في أي مكان. يمكننا أن نترك الأخوية ليفعلوا ما يشاءوا وينشروا القضية في الصحف، لكن هل تتخيل ما يمكن أن تفعله الصحف بالحقائق؟ أيُّ جحيمٍ سينفتح علينا؟.. ما هذا؟!

كان العميد قد أشعل عودَ ثقابٍ، لكنه أوقعه على المكتب حين سمع صوت خطواتٍ تجري، وصوت صراخ طفلة.

كان بلَنكيت أقرب إلى الباب، لكنه كان بطيء الحركة للغاية، فقام ماركوس وفتح الباب. أول ما رآه هو ممرضة منطرحة أرضًا ومن خلفها امرأة ضخمة ترتدي معطفًا من الفراء الأسود، وكانت تجر طفلة من شعرها الأشقر نحو الدرجات، بينما الصغيرة تصرخ وتركل.

كان الخَبَال يُشعّ من كل حركة من حركات المرأة. بينما جرى ماركوس نحوهما سمع أنصاف عبارات متناثرة بين صرخات الطفلة.

كانت المرأة تصيح:

- أيتها اللعينة.. أنتِ لستِ ماري، أنت الشيطان ذاته.. روح شريرة لم يكن لها أن تُولَد، وسأعيدك إلى الجحيم حيث تنتمي!

عندما وصل ماركوس عندهما، كانا عند رأس الدرج، صاح:

- توقفي عن ذلك. اتركيها.

جذب كتف الطفلة إلى ناحية وذراع المرأة إلى الناحية الأخرى. كان وجه المرأة الأسمر محاطًا بهالة من غضبٍ وهي تحدق فيه.

تحررت ماري فالي وأمسكت في سترته طالبة الحماية، تم تراجعت المرأة وطوحت حقيبتها في وجه ماركوس، وأظلمت الدنيا من حوله.

***

قام ماركوس مترنحًا، ووجد أن الممرضة قد احتوت الطفلة بين ذراعيها. قال في وهنٍ:

- لا تخافي يا صغيرتي، لقد رحلت ولا داعي للبكاء. أنتِ في أمانٍ يا ماري، ولن ندع أحدًا يؤذيك مرة أخرى.

حدَق العميد فيه من أعلى قائلًا في قلقٍ:

- هل أنت بخير يا ماركوس؟ لقد فقدت الوعي لدقائق؟

- وكأنها تحتفظ بقطعة قرميد في حقيبتها.

وضع ماركوس منديله على جرح رأسه النازف وتساءَل:

- هل أوقفها أحدٌ؟

- كلا.. هربت، وقد اختفى الجميع من أمامها.. كانت بادية الجنون. اتصلوا بالشرطة وأعطوهم وصفًا لها. سيجدونها حتمًا كما أظن.

أشار العميد بكلتا يديه أمامه مُبعدًا التجمهر:

- سيداتي سادتي.. عودوا إلى أعمالكم من فضلكم.

ثم سأل الممرضة:

- والآن، أخبريني ماذا حدث؟

- المرأة هي أم ماري، سيدي العميد.. كفَّي عن البكاء يا حبيبتي.

قربت الطفلة إلى صدرها أكثر وأردفت:

- حمدًا لله أن السير ماركوس قد وصلَ في الوقت المناسب. كانت المجنونة تصرخ بوجوب قتل الطفلة. لو لم تحضرا لكانت فعلتها.

قضب العميد جبينه وغمغم:

- أمها؟! وكيف دخلت إلى هنا؟ منذ أن جاءت من قَبل وأنا قد أصدرت أوامرا بمنع دخولها إلى المستشفى.

أجابت الممرضة:

- السيد هَينس هو من أدخَلْهَا يا سيدي. كنت مشغولة في ترتيب خزانة المفروشات، ولمحتهما يدخلان إلى حجرة ماري. ظلا بالداخل لنصف ساعة، ثم سمعت الصراخ ورأيت المرأة تسحب الطفلة من شعرها. حاولت أن أوقفها لكنني سقطت أرضًا، وأنت رأيت باقي ما حدثَ. هل لي أن أعيد ماري إلى فراشها يا سيدي العميد؟

- بالطبع، لكن سنودِعها غرفة أخرى هذه المرة. أعطِها مهدئًا خفيفًا وابقي جوارها لو سمحتِ.

تغيَّر وجه بلَنكيت إلى غضبٍ شديدٍ وهو يغمغم:

- هَينس.. دائمًا هَينس.. الرجل مجنون! كيف يدخل امرأة مجرمة مجنونة إلى المستشفى ويتركها وحدها مع طفلة؟! سأتأكد من أنه لن يُمارس الطب مجددًا لو أن هذا آخر ما سأفعل في حياتي.

سار ماركوس في الرواق مُترنحًا متوجهًا لحجرة ماري وسأل:

- هل تركها وحدها معها حقًّا؟! الممرضة كانت عند خزانة المفروشات ولم تذكر أنها رأت هَينس يخرج من الحجرة.

خطا ماركوس إلى داخل الحجرة المضاءة المزدانة بالزهور. رأى كرسيين موضوعين جوار السرير، كان أحدهما خاليًا، بينما يجلس بيتر هَينس على الآخر مُحدقا في الوسادة الخالية أمامه. كان شاحبًا ونظراته خاوية، تتوسط جبينه بُقعة حمراء. مرَّ وقتٌ حتى أدرك ماركوس أن البقعة ما هي إلا دبوس تثبيت قبعات طويل مغروس في مُخه.

الفصل السادس

أشار الجنرال تشارلز كيرك من الاستخبارات المركزية الملكية إلى كومة الجرائد في حجرة معيشة ماركوس لَفين وقال:

- حسنًا يا ماركوس، إنها الشهرة يا صديقي! سيحقق لك هذا دعاية أكبر من لو كنت صنعت دواءً مضادًا للشيخوخة.

مرت خمسة أيام على وفاة بيتر هَينس، واختفاء آنا هارب بلا أثر. ظهورها وحادث القتل أشعلا اهتمامًا واسعًا لَدى الصحافة لم ينطفئ من يومها.

حدق الجنرال كيرك في صورة آنا في الجريدة وقال:

- ليست ذوقي في النساء بالتأكيد.

ثم بدأ قي قراءة عناوين الأخبار:

- لا زالت قاتلة الأربعة ضحايا هاربة.. لماذا أطلَقَ سراح امرأة كهذه من مستشفى برودمور؟

أردف الجنرال وهو يقرأ الخبر نفسه:

- لكن ما فعله السير ماركوس لَفين عملٌ بطوليٌّ، لولاه لكانت ماري فالي في عِداد الموتى. الممرضة مافيس رَدجارد كانت شاهد عيان، وقالت للصحافة إن المرأة كانت تنتوي إلقاء الطفلة في بئر السُّلم لولا تدخُّل السير لَفين. السير نفسه قال في تواضع إنه لم يفعل شيئًا يستأهل الاحتفاء، إلا أن وجهه الوسيم لا زال يحمل أثر عدوان المجنونة عليه.

نظر الجنرال إلى قطعة اللاصق الطبي المُثبتة على جبين ماركوس قائلًا:

- حسنًا أيها الطبيب المتواضع.. لطالما أحسبك أكثر الناس حظًا، ومع دعاية كهذه سيبحثون لك عن تكريمٍ لم تتكرمه أو وسامٍ لم تتقلده ليمنحوه لك.

لم يجد ماركوس كلام كيرك مُسليًا. قال:

- هذه دعاية من نوع لا أحتاجه. كل ما فعلت هو أنني جذبتُ الطفلة من يد المرأة، وتلقيت ضربة بعدها أفقدتني الوعي. هؤلاء الصحفيين لم يهدأوا منذ الحادث.

- هذا هو ثمن البطولة يا عزيزي.

قرَّب الجنرال كأسه من تانيا لتملأه قائلًا:

- شكرًا لك يا عزيزتي.. سأشرب كأسًا آخر من ذلك الويسكي الضعيف لو سمحتِ.

برغم دفء الحجرة، إلا أن الجنرال لم يخلع معطفه، ولا الكوفيَّة التي يلفها حول عنقه.

- أخبرني يا ماركوس، هل شهادة الممرضة صحيحة؟ هل كانت آنا هارب تنتوي إلقاء طفلتها في بئر السُلم؟ أم هي تُهوَّل الأحداث؟

عادت ذكرى وجه المرأة وشتائمها إلى ذهن ماركوس، كما عاد إحساس اصطدام حقيبتها الثقيلة برأسه. قطَّب جبينه قائلًا:

- لا أستطيع أن أجزم بشيءٍ كهذا، لكنها كانت تنتوي قتلها يا تشارلز. كل ما نعرفه أنها قتلت هَينس وحاولت قتل الطفلة. سمعتها تخرِّف بكلامٍ عن إعادة الشيطان إلى مكانِه في الجحيم، وقالت كذلك أن ماري هي روحٌ ما كان لها أن تولد.

رفع كيرك حاجبيه هاتفًا:

- غريبٌ أن ما قالته هو اقتباسٌ عن الشاعر ألفريد إدوارد هاوسمان في مُعرض حديثه عن المثلية الجنسية. قال بالنص:

«آجلًا أو عاجلًا.. بعد العار والخزي والازدراء

تقتل خائن العِشرة، تقتل تلك الروح التي لم يكن لها أن تُولَد..

لكن، كلا.. لا يمكن تصوُّر أن تكون آنا هارب من الأشخاص الذين يقتبسون كلامهم من الشعر. لنرَ ما كتبه جون فورست عن هذا الموضوع. كتب: ماري فالي الآن سعيدة وقد عادت لرفقاء اللعب في دار رعاية فان ترايلِن في جزيرة بالا بإسكوتلنده، حيث ستلعب وتضحك مجددًا وتنسى تلك التجربة الشنيعة. هي سعيدة، لكن هل هي آمنة؟ آنا هارب قتلت أربعة أشخاص وتحمل كراهية عنيفة لابنتها. حتى تحبس تلك المرأة في مكانٍ لا يمكنها مغادرته، فإنني، جون فورست، وجريدة الصدى اللندنية نرى أن الفتاة في خطر مُحيق.

أفرغ كيرك أنفه في منديل، ثم أردف:

- مقال سخيف عاطفي فارغ مملٌّ.. لكنه كان مُحقا بشأن وجوب حبس المرأة. ماذا حدث في تلك الحجرة يا ماركوس؟ ماذا أزعجها؟ بحسب الشهود، فالسيدة هارب كانت عاقلة وهادئة منذ دخلت المستشفى، وشهدت الممرضة أنها أمضت نصف ساعة في الحجرة بلا مُنغصات، فماذا استفزها إلى هذه الدرجة؟

كان ماركوس متعجبًا لاهتمام تشارلز بالقضية. كان عمل صديقه يهتم بالشئون الخارجية والمخابراتية، ويمكن القول أن تلك القضية بعيدة تمامًا عن عمله. قال ماركوس:

- ربما رفضت الفتاة الأم فأثارت غضبها.

- لأسباب ظاهرة، لم يستجوبوا ماري قَطّ، لكن ما قالته لم يكن مقنعًا. قالت إنها لم تتعرف على المرأة بل وكانت خائفة من مظهرها. حاولت المرأة أن تُقبِّل الطفلة، إلا أن الأخيرة صرخت وتمسَّكت في هَينس مُحتمية به. عندما أمرها بعدم لمس الطفلة، قامت المرأة بنزع دبوس قبعتها وطعنته به في جبهته. أتظنها لم تتعرف على أمها بعد فترة ثلاث سنوات لم ترَها خلالها؟ هذا أمرٌ غيرُ مُقنعٍ بالنسبة

لي يا ماركوس. هل ما قالته الطفلة ذو علاقة بمرضها العقلي الذي زعمه صديقك هَينس؟ لن نستطيع أن نعرف المزيد من ماري فالي، فقد سرَّحوها.

التفت كيرك وظلَّ يفرك كفيه أمام المدفأة الكهربية مُضيفًا:

- خدعَتك أنت وصديقك كانت لتودي بكما إلى ما لا يُحمد عقباه.

- لا أحتاج أن أتذكر ذلك يا تشارلز.

بخلاف هَينس وتانيا، لم يكن أحدٌ يعلم بشأن الخدعة سوى كيرك. بعد وفاة هَينس، لن يتهمه أحدٌ بشيءٍ وقد برُأت ساحته، لكنه كان يشعر بعد بتأنيب الضمير، كونه مسؤولًا عن جانب مما حدَث. هَينس مات، وكادت طفلة تموت، وآخر مشهد رآه أعاد له ذكرى كل شيء. كان مشهد رجلٍ محنيٍّ اندفعت إليه الطفلة حين رأته هاتفة:

- عمي مايكل، خذني للبيت.. أرجوك لا تدعهم يستبقوني هنا ويؤذوني.

بكى العجوز اللورد مايكل فاونلي كطفلٍ هو الآخر عندما أخبره العميد أن بإمكان ماري المغادَرة، وظلَّ يشكر ماركوس على إنقاذه للطفلة.

ثَمة شيء يثير العاطفة في مرأى الاثنين سويًّا، أحدهما عجوزٌ منحنٍ، والآخر طفلة صغيرة تتقافز بفرح، يسيران يدًا بيد نحو سيارة أجرة.

قال ماركوس وقد غادر كرسيه نحو النافذة:

- عمومًا، لقد انتهى الأمر، ولنعُد إلى حيواتنا.

كان الجو قد صفا، وانقشعت العاصفة، وانعكس القمر على سطح النهر.

قالت تانيا:

- هل انتهى الأمر فعلًا يا عزيزي؟ أنا أتفق مع الجرائد، فحتى يتم العثور على المرأة، فالطفلة في خطرٍ.

التفتت تانيا نحو تشارلز كيرك وقالت:

- أشُك أن زيارتك ذات هدف اجتماعي بحت يا تشارلز.

- أنتِ شكَّاكة يا عزيزتي!

بحث الجنرال في جيبه، فأخرج علبة سيجار بيده اليسرى ذات الأصابع الثلاثة المفقودة وأردف:

- أنت محقة طبعًا، أعترف أنني لم أجئ لأنال شرف صحبتكما فقط، أريد شهادة ماركوس عمَّا حدث في المستشفى.

أشعل سيجارة وقام مبتعدًا عن المدفأة مضيفًا:

- الحق أن القِسم الذي أعمل فيه مُهتمٌ بأخوية فان ترايلِن هذه، وكما كنت صريحا معي دومًا يا ماركوس، سأكشف أوراقي أمامك.

التقط كيرك حقيبته ووضعها على الطاولة قائلًا:

- أخوية فان ترايلِن مكونة من ثلاثين شخصًا، غالبيتهم العظمى من العجائز الأثرياء ممن تطوعوا لعمل الخير، فمن قد يريد تدمير أخوية كتلك يا تانيا؟

رأته تانيا يُخرج مجموعة من الصور الفوتوغرافية من حقيبته. أجابت:

- لا أفهم.. هل ثمة من يريد تدميرهم يا تشارلز؟!

- يبدو كذلك، لكن دعوني أريكم بعض الأدلة.

وضع كيرك الصورة الأولى أمامهم مُضيفًا:

- هذه هي السيدة هيلين فان ترايلِن، مؤسسة الأخوية، وقد الْتُقِطت هذه الصورة قبل شهر من وفاتها. كانت سيدة محترمة، أذكر مقابلتها مرة عقب الحرب العالمية الأولى، ولم أرَ مخلوقة في جمالها قَط. برغم ذلك، فهي قد تزوجت أمريكي غني مُقزز يُدعى فينيسنت فان ترايلِن، ولم تعد لإنجلترا قبل موته عام ١٩٥٠. حين عادت، تواصلت مع أصدقائها القدامى.. فاونلي، لِكولُس، وبقيتهم، وأسسوا أخوية خيرية سويًّا. رغم تعدُّد اهتمامتهم، إلا أنهم كانوا يُفضلون العمل الخيري المخصص لليتامى والأطفال. لأغراض ضمان الولاء، لم يزد عدد أعضاء الأخوية عن ثلاثين، وحين يموت أحدهم، يظل العدد كما هو بمنح المكان الشاغر لشخص آخر. يتم اختيار هذا الشخص حسب معايير مُعينة، منها الثراء أو التخصصات النادرة التي قد تحتاجها الأخوية. سمعت أن دار الرعاية في جزيرة بالا يوفر أفضل الخبرات التدريسية في البلاد.

قالت تانيا وهي تنظر لصورة هيلين:

- ظلت على جمالها حتى النهاية يا تشارلز.

هز كيرك رأسه وقال:

- ليس للنهاية يا عزيزتي، كانت مصابة بورم وفجرت رأسها منتحرة.. أو كما قالوا.

وضع صورة أخرى أمامهم يبدو فيها رجلًا طويلًا نحيلًا مُمددًا على كرسي شاطئ، وكان يرتدي قبعة وسترة وربطة عنقٍ. قال كيرك:

- هذا هو كولونيل بول أندرسُن، والذي توفي منذ تسعة أشهر ونصف الشهر، ووفاته هي من أدخلت رجالنا إلى الأحداث. سقط الرجل من شرفة دار الرعاية التي كان يقيم فيها بعد إجرائه لجراحة في البروستاتا، ومات من فوره. القسم الذي أعمل فيه لم يهتم كثيرًا حيث أن آندرسُن قد أُقيل إلى المعاش العام الماضي. كان يعمل معنا في منصب حساس، ومنصب كهذا له معاش مُجز للغاية. المهم أن وفاة آندرسون كانت مأسوية، فأرسلنا أحد رجالنا لتحري الأمر، واقتنعت الشرطة أن الحادث كان قضاءً وقدرًا. كما ترون في الصورة، فآندرسُن كان رجلًا طويلًا، وسور الشرفة لم يتجاوز ارتفاعة ثلاثة

أقدام، وأيقنت الشرطة أنه قد مال قليلًا للأمام فاختل توازنه وسقط. مجرد حادث مأسوي. لم أكن أعرف وقتها أنه كان عضوًا في أخوية فان ترايلِن، ولم أعرف إلا مُتأخرًا.

حدق ماركوس في الصورة قائلًا:

- ماذا إذًا يا تشارلز؟ امرأة مصابة بورم فانتحرت، ورجل في فترة نقاهة اختل توازنه فهوى من الشرفة ميتا. أمور مؤسفة طبعًا، لكن لمَ نُلقِ الضوء عليها أو نظنها مؤامرة ضد الأخوية؟

- لسببٍ واحدٍ، هو أنني أعرف بول آندرسن يا ماركوس، لم أكن ميَّالًا إليه كثيرًا، لكنني رأيت منه الجانبَ المِهَني. الرجل كان يعاني من دوَّار مُزمن، ولم يكن يقترب أبدًا من أي سورٍ خشية السقوط. كذلك كان يعاني رهابًا من الموت، وهو رهاب غريب بالنسبة لجندي، لكن مجرد ذِكر الموت يُعكر مزاجه لباقي اليوم؛ لذا ففكرة أن يميل آندرسُن على السور ويختل توازنه فكرة غير منطقية تمامًا. هيلين وبول، سببان حتى الآن، لكن هناك أسبابًا أخرى.

وضع أمامهم ثلاث صور وقال:

- كان التالي طفلًا في التاسعة من العمر، تحت وصاية الأخوية، اسمه بيلي مارتنديل. ذهب للسباحة بالقرب من دار الرعاية، وجرَفه الموج بعيدًا حتى إنهم لم يجدوا جثته.

أزاح صورة تجاه تانيا تبدو فيها امرأة جالسة أمام آلة كتابة وقال:

- هل تعرفتِ على تلك المرأة؟ هذه نورين ستروكس، كاتبة روائية مرموقة، بالرغم من كوني لا أحب قراءة الروايات التاريخية الرومانسية. الكاتبة كانت تُمضي عطلتها في دار الرعاية وكانت في طريق عودتها إلى لندن ليلًا، كان الجو مَطيرًا فانزلقت عَجَلًا سيارتها من فوق مرتفع، وهوت بها في مكان جوار فورت ويليام. وأخيرًا، وفاة أخرى بفعل الجاذبية والماء. إليسي كينجز ميل، من الأوصياء وكانت تصطاد في مكانٍ قريبٍ من الملجأ، اختل توازنها وسقطت في الماء، وجدوا جثتها وقد لفظها البحر بعد أسبوع، وقد أكل كائنٌ بحريٌّ ما رأسَها.

جمع كيرك صورَه الفوتوغرافية وأعادهم إلى الحقيبة هاتفًا:

- هذا هو كل شيء.. مؤسسة خيرية واحدة، وخمسة ميتات عنيفة خلال عام واحد، وكل الجثث في تلك الحوادث مشوَّهة بشكلٍ أو بآخر. والآن نُضيف إليهم حادث هَينس والطفلة ماري فالي.

أغلق الحقيبة، وعاد إلى جلسته جوار المدفأة قائلًا:

- هل يمكن للسير ماركوس المُتواضع أن يمدنا بتفسير غير الصدفة والحظ السيء؟

- مُزحة ماركوس المتواضع صارت سخيفة يا تشارلز.

كان ماركوس قد ضاق ذرعًا بتلك الصفات التي ألصقتها به الصحافة، ولم يعد يقدر على قضاء بضع دقائق دون أن يجد من يضربه على كتفه ويمزح بشأنها، أو يشكره بكل حماس على فعله البطولي.

قال ماركوس:

- لا بُدّ وأنها سلسلة من المصادفات، فالناس تنتحر أحيانًا حين تعاني من مرض مزمن مؤلم، تقع حوادث السيارات بشكل متكرر، ويغرق الناس في البحر من وقتٍ لآخر. المهم، ما دخل المخابرات في الأمر يا تشارلز؟ ظننتكم مهتمين بالقبض على الجواسيس.

كان ماركوس يتحدث بوقاحة، وكان متضايقًا من نفسه لذلك. كانت الوقاحة جزءًا من اعتلال مزاجه بعد وفاة هَينس.

- لم تتدخل المخابرات قَط إلا في مسألة وفاة الكولونيل فقط. كما تعلم، أنا شِبه متقاعد الآن، فقط أتابع حراسة عدد من الشخصيات الهامة الذين لا يحتاجون حراسة أصلًا.. كنت مصابًا بالملل حتى رأيت في قضية آندرسن ما يشغل عقلي. ثم عرفت بأمر الوفيات الأخرى ذات الصلة بالأخوية، فتحول الملل إلى اهتمام وقلق شديد.

سأل الجنرال تانيا:

- وأنت يا عزيزتي، أتظنين أن ما حدث أيضًا محض صدفة؟

- ليس لدي دلائل كفاية كي أحكم.

بدت لكنة تانيا الروسية في حديثها. قبل أن تتزوج ماركوس، كانت تعمل لدى جورج باتروف، عميد في البوليس السري الروسي، وأي جريمة كانت تثير شهيتها وفضولها. أردفت تانيا:

- ومع ذلك.. لدينا خمس وفيات، ثلاثة منهم أثرياء للغاية. هيلين فان ترايلِن، أندرسُن، نورين ستروكس. لكن ثلاثتهم بلا أطفال كذلك؟

أشار كيرك بسيجاره نحوه مُحييًا وقال:

- فتاة ماهرة.. هم كذلك. كل أعضاء الأخوية لم ينجبوا، وأغلبهم أثرياء. ثروة هيلين فان ترايلِن تعدت اثنتي عشر مليون دولار. ورث آندرسن نصف أسهم شركات إيجل للنسيج، ونورين ستروكس صدر لها عشر روايات كلهم في قائمة الأكثر مبيعًا، وباعت حقوق تحويل اثنين منهم لأفلام بمبلغ مائة ألف دولار لكل فيلم. أكثر أعضاء الجماعة فقرًا يُعتبر غنيًّا بالنسبة لنا. بمَ تقدَّر ثروة إيريك بيتس يا ماركوس؟

- علاقتي به لا تسمح بأن يُفضي لي بتلك التفاصيل. لكنه غني، فقد كان واحدًا من أفضل وأسرع الجراحين في البلاد.

سألت تانيا في اهتمام:

- هل ترك أولئك المتوفين وصايا؟ لمن تؤول ثرواتهم؟

- نقطة هامة يا عزيزتي، كل مليم يملكه أيٌّ من الأعضاء يؤول للأخوية. وحيثما توجد أموال توجد جرائم. لو استمرت حوادث موت الأعضاء، فستكون الأخوية أغنى كيان في البلاد.

ضحك ماركوس ضحكة مريرة حتى آلمه جرح رأسه، قال:

- أرى ما ترمي إليه يا تشارلز. عند رأس الأخوية يجثم وحش يمتص الأموال، ربما يكون متنكرًا في هيئة لورد فاونلي مثلًا. يخطط لإسالة أموال كل الأعضاء ثم يفر بها. أعتقد أن الطفل قد تعثر بشكلٍ ما في مُخططاته فانكشفت له؛ لذا وَجَب إسكاته.

- ربما يجثم عند رأس الأخوية أكثر من مجرد وحشٍ.. منظمة عالمية.. مافيا.

جال ماركوس في الحجرة مضطربًا وهتفَ:

- كفاك نظريات عجيبة يا تشارلز. الأمر معقد بما يكفي. نحن نعرف أن آنا هارب المجنونة قد قتلت هَينس وهاجمت ابنتها في نوبة هياج. هذا لا يتسق مع نظرية المؤامرة التي تسعى لتدمير الأخوية.

نظر كيرك له باهتمام عميق وقال:

- أنا لم أقل ذلك يا ماركوس، فإن قلنا إن الموتى ستة وهَينس منهم، فأي صدفة تلك التي تجمع هذا العدد في بوتقة واحدة؟

تراءى لماركوس الحجر الأحمر المثبت وسط جبهة هَينس، فصب لنفسه كأسًا آخر.. ثمة العديد من الوفيات في العالم، لكنه كان مسؤولًا عن وفاة هَينس بشكلٍ ما.

- لا بُدَّ وأنها صدفة..

كان يتمنى لو يجرف النهر كل ذكريات الماضي.. الأجساد المتفحمة في وارسو جيتُّو.. الرؤوس المحلوقة المُكومة كالفطر في بيلسين.. الوجوه الرانية للأعلى على وسائد المستشفيات تستجدي الحياة.. «انجدنا أيها الطبيب، لا تتركنا للموت.. لست مستعدًا للموت..» ثم ينجلي أمامه وجه حاول نسيانه ولم يفلح، وجه زوجته الأولى راشيل، بين يديه، بينما تهطل الأمطار فوق أحراش فيتنام، ويلعن الحياة التي لم توفر أيَّ مُضادٍ حيويٍّ ينقذ به زوجته التي تُحتضر أمامه.

قال ماركوس:

- لا بُدَّ وأنك أرسلت الكثير لحتفهم بدمٍ باردٍ يا تشارلز. لكنك الآن تشعر بالملل فتهتم بقضية أخوية فان ترايلن.

شعر ماركوس بألمٍ حارقٍ في كفه، ليجد الكأس مهشمة بين أصابعه والدم ينز على الأرض. أحاطت تانيا كتفيه بذراعها قائلة:

- كفاك يا عزيزي. أنت تظن أنك السبب في وفاة هَينس. كل ما فعلته أنت هو مساعدة صديق، ولا يوجد ما تشعر من أجله بالذنب.

لفَّت منديل على كفه مُردفة:

- هَينس هو من توَاصَل مع المرأة ودعاها للمستشفى، فلا يلومن إلا نفسه.

- لديك حق يا تانيا.. وآسف يا تشارلز، فما قلته كان بلا مبرر.

- لا تهتم يا ماركوس، أنت أيضًا مُحق. عليَّ أن أكون بارد الدم في عملي وإلا سأجَن. وأنت مُحق كذلك في قولك أن الأمر قد يكون صدفة. خمسة متوفين عدد غير كافٍ لاعتبار وفاتهم مدبرة.

التقط تشارلز كيرك حقيبته مُضيفًا:

- عليَّ أن أرحل..

توجه الجنرال نحو الباب الذي انفتح ودخلت منه جين ماكدوجارت، مدبرة منزل ماركوس، الإسكوتلندية المتهجمة. كانت تكره كيرك، وعبوسها أكد أنها لا تُرحب به ضيفًا على العشاء.

وضعت جريدة مسائية على الطاولة وقالت:

- المزيد عن القضية سير ماكوس. لطالما قلت إن الطفلة لا زالت في خطر، وأن الإعدام هو الحل مع أمثال المرأة آنا هارب، ويبدو أنني مُحقة كالعادة.

كان العنوان الرئيسي للجريدة: «الصيّادة» يغطي ثُلث الصفحة، تحته صورة لآنا هارب التقِطَت بعد إطلاق سراحها منذ عشر سنوات. يقول الخبر إن امرأة بمواصفات آنا هارب، شوهدت على متن قارب يعبر من إسكتلندا إلى جزيرة بالا.

الفصل السابع

كانت الحجرة بلا نوافذ، معقَّمة ومكيفة بالكامل ومهيأة لتكون حجرة عمليات جراحية، لكنها لم تكن كذلك.

تضيء لمبات الفلورسنت الحوائط المطلية بمادة مضادة للتكاثُف، والمُعلَّق عليها لافتة تمنع التدخين، مكتوبة بحروف حمراء قانية.

في منتصف الحجرة، تقبع طاولة معدنية من حولها خمس فتيات محنيَّات على ما يشبه آلات كتابة ضخمة. رتابة ما تقُمن به أضفى تعبيرًا من الذهول الدائم على تعبيرات وجوههن. الآلات تصدر صوت «سنيك.. سنيك.. سناك». باستمرارٍ وهي تلفظ صفًّا من البطاقات المُثقَّبة الخاصة بالكومبيوتر. في أسفل كل آلة مكنسة تشفط التراب والبقايا.

ابتسم الرائد نوربرت رايلي لتشالرز كيرك وتانيا لَفين، بينما يحمل مُساعده أول رزمة من البطاقات إلى ما يشبه صندوقًا معدنيًّا على طاولة أخرى.

كان الرائد رايلي مسؤولًا عن قسم التشفير والتكويد، لكن أخيرًا أهَّلته درجة الدكتوراه التي حصل عليها في الهندسة الكهربية إلى ما هو أكثر. كانت السُّلطات تخطط لتحويل المعلومات الاستخباراتية لصيغ تشغيل آلي، وقد استحوذ رايلي على الكومبيوتر الوحيد في حوذته، وكان يعامله كأنه من أملاكه الشخصية.

رفع كيرك حاجبيه مشيرًا إلى الصندوق المعدني قائلًا:

- أتعني أن هذا الشيء كومبيوتر؟

كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها خُلوة الرائد تلك، وكان يتوقع أن يرى لمبات تضيء وتنطفئ، وأسلاك وعدادات.

ضحك رايلي قائلًا:

- خاب أملك أيها الجنرال؟ كنت تتوق لرؤية شيء أكبر وأكثر إبهارًا؟ لا يهم الحجم في هذا العصر، فما يدور بداخل الشيء أيًّا كان حجمه هو الأهم. قارن حجم مُدمِّرة حديثة ببارجة من الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال. أربعة آلاف طنًا مقابل خمسين ألف طنٍّ، لكن الصغيرة اللطيفة سلاح أكثر فتكًا. كل بوصة مربعة من ذلك الجهاز أمامنا تحوي معداتٍ أكثر مما تحويه ستة أجهزة استقبال موجات راديو تقليدية. في هذه اللحظة، تقوم آلاف الدوائر المُتكالمة بتحليل مُعضلة الجنرال بسرعة الضوء. كل ما يُبطئنا هو العامل البشري.

نظر بحزن تجاه مساعده، ألسوب، وإلى مُشغِّلات آلات إنتاج الكروت المُثقَّبة. كانت الكروت تتكوم بسرعة، بينما يُلقمها ألسوب إلى فتحة جهاز الكومبيوتر واحدة تلو الأخرى كأنه يضع مظاريف في صندوق بريد.

سأل كيرك:

- وهل سيعطينا الجهاز نتيجة في النهاية؟

كان رايلي يعرف أن كيرك غير مقتنعٍ بتلك التكنولوجيا، فكان الرجل مسيطرًا على كل شاردة وواردة في الماضي، أما الآن، فما استجدَّ لا يتسع له عقله، ويُحجِّم سُلطاته.

- النتيجة تتوقف على ما أعطيته لنا من معلومات سيدي الجنرال. تود أن تعرف إن كان ثمة قُوَى غامضة تعمل بغاية تدمير أخوية فان ترايلِن، وما إذا كانت تلك القوى مُتسببة في وفيات العام الماضي، بالإضافة إلى محاولة معرفة إن كانٍ ما حدث للطفلة جزءًا من هذا النشاط التدميري. نحن نبحث المعلومات التي أمددتنا بها، لكننا عقلٌ باردٌ بلا عواطف، لا عرَّافين. الجهاز مصمَّم لحل المشكلات الرياضية بالأساس بلا هامش خطأ. تتحكم بوابات في الدوائر الإليكترونية وتلفظ أي مُعطى غير دقيق. إن كانت معلوماتك كافية ومحددة، فستجد إجابات ومقترحات للتصرف الأمثل.

ابتسم الرائد لتانيا، ثم عبس عندما فتح كيرك علبة سجائرة قائلًا:

- ممنوع التدخين يا سيدي. بعض أجهزتنا حسَّاسة لأي تغيُّر في درجة الحرارة أو في الأجواء المحيطة، مما قد يؤثر على دقتها. كما تعرف فإن أبعاد جزيء دخان التبغ حوالي ٠. ٦ ميكرون.

- لا تحادثني بهذه الطريقة يا نوربرت، وإلا وعدتك إلى قسم التشفير والتكويد فورًا. إذًا.. النتائج تعتمد على كمية ودقة المعلومات التي زودتكم بها، والتي يطعمها ألسوب للكومبيوتر.

نظر الجنرال لكومة الأوراق المكتوبة التي تنقلها الفتيات إلى البطاقات، وفكر في المهمة التَّعِسة التي انغرس فيها ومساعده طوال الأيام الثلاثة الماضية، فقد دوَّنا كل حقيقة عرفاها عن الأخوية وأعضائها، الأحياء والموتى، الأطفال والأوصياء. كتبا تقارير عن كل وفاة وقائمة بكل المستفيدين منها. ثم سجلا كل ما استطاعوا أن يصلوا إليه بشأن آنا هارب ومعارفها. وجدت الشرطة دفترًا يحوي أرقامًا وعناوينَ في الكارفان الخاص بها، والذي كانت تعيش فيه في أرض المعارض. تبيَّن لهما أن قراءة الطالع عمل مجزٍ بعد أن عرفا رصيدها في البنك، ووجدا عقود ست شقق مُؤجرة في لندن. يستطيع العامل بالعِرافةً استغلال الماضي والمستقبل كما يبدو، وما تعرفه السيدة هارب عن عملائها، تستخدمه في الابتزاز وجذب المراهقين للبغاء. لقد كدح كيرك ومساعدوه كثيرًا، لكنه يعرف أن أغلب المعلومات لديه مُعتمدة على السماع، ولا يستطيع فعل شيء للتأكد أكثر منها. فقط تمنى لو يستطيع الكومبيوتر استخلاص شيء منها.

مالت إحدى الفتيات خلفًا في كرسيها، بعد انتهائها من تسجيل المعلومات التي بحوذتها. أومأ رايلي ناحيتها برضا ثم قال:

- بالضبط أيها الجنرال. لقد نقلنا أغلب المعلومات، فربما يمكنك أن تفكر في أي معلومة منسية تستطيع تزويدنا بها لو أحببت.

ابتسم رايلي لتانيا كاشفًا على كباري أسنان ذهبية تلمتع تحت الضوء وقال:

- وأنتِ أيضًا يا سيدتي، أتظنين أن زوجك الكريم يملك ما يضيفه عن الطفلة أو أمها أو السيد هَينس؟

- كلا. الجنرال كيرك قد أرفق كل ما حصل عليه من زوجي بتقاريره.

رافقت تانيا كيرك بدافع من فضول بشكل أساسي، وبشكل فرعي، فهي تريد أن تُبقي ذهنها مشغولًا، فقد كانت قلِقة للغاية. كانت متزوجة من ماركوس لأربعة أعوام، ولم تعرف أنه قد يتأثر عاطفيًّا بهذا الشكل. كان مبرر اكتئابه هو فشل تجارب الأجسام المضادة، لكنها كانت تعرف أن السبب هو الشعور بالذنب، والذي ينخُر في عقله كالسوس. شعور بالذنب تجاه موت هَينس، وتجاه حنثه بقسمه كطبيب، وشعور طاغٍ بالذنب كونه سببًا مُحتمَلًا لوضع عبء أكبر على طفلة مصابة باضطراب عقلي. ناما مفترقين طيلة الثلاثة أيام الماضية، وكانت تسمع صوت خطواته القلقة طيلة الليل.

كان لماركوس حق في أن يعارض نظرية كيرك عن المؤامرة على أخوية فان ترايلِن كلها. من قد يرغب في تدبير جماعة خيرية مسالمة كتلك، وإضاعة مستقبل الأطفال تحت رعايتهم؟

فكرت تانيا كثيرًا في كل الفرضيات التي افترضوها، ورفضت منها ما لم تبتلعه. شكّوا في احتمالية وجود ورثة للأثرياء العجائز، إخوة أو أخوات، أولاد أخ أو أخت، خدم يطمعون في شيءٍ من الميراث، أو حتى أهالٍ قد أخذوا منهم أطفالهم وأودعوهم ملجأ فان ترايلِن. أي شخص من هؤلاء قد يستأجر قاتلًا محترفًا ليقتل هؤلاء الأشخاص، حتى لو اضطر لإتباع الحيلة القديم بقتل بعض الأبرياء لتغطية الدوافع الحقيقة لقتل أفراد الأخوية. لكن تانيا لم تقتنع بأيٍّ من ذلك.

من قتل هَينس قاتلة مخبولة معروفة، وباقي الوفيات قد تكون فعلًا مجرد صُدَف.

هزَّ كيرك رأسه وقال للرائد نوربرت رايلي:

- لا أستطيع أن أذكر أيَّ تفاصيل أخرى يا نوربرت. ربما نحتاج إلى عرافٍ بدلًا من آلتك للوصول إلى نتائج.

- ربما تفكر في مخلوق كـ «سفينكس» تسأله فيجيب، أو عرافات ديلفي. لكننا لسنا عرافين كما أخشى يا سيدي. كل ما يسعنا فعله هو التحليل والانتقاء والمقارنات، ثم التوصل لإجابات إن كان ما بين يدينا من معلومات دقيقًا وكافيًا.

انخرط الرائد في محاضرة طويلة عن التكنولوجيا، أصابت كيرك بالدوار، ولم يصمت قبل مُضي خمس دقائق.

انتهت آخر فتاة من نقل ما لديها إلى البطاقات، نظر رايلي لهن قائلًا:

- ها قد انتهيتُن!

قامت الفتيات وخرجن من الحجرة، بينما أطعم ألسوب آخر بطاقات للجهاز الذي صدر عنها صوت تكَّتين معدنيتين تشيان بكون الجهاز حيًّا، ثم انطلق شريطٌ ورقيٌّ من أسفل الجهاز، لفَّه ألسوب حول كفه وتبع الفتيات خارجًا من المكان.

- لقد انتهت مهمتنا أيها الجنرال، وقد فصلنا الخراف عن الماعز.. يمكنك التدخين لو أحببت. لن يتأخر ألسوب، لكن كأغلب البيانات التي نُحللها، قد تحتاج بعض النتائج للحجب الأمني. هذا الجهاز

يعمل على تكويد المعلومات، أما جهاز فك التكويد فهو في مكان آخر من المبنى.

عبر الرائد بخفَّة من أمام خزانة مكتوب على بابها: سري للغاية. وأخرج منها صحفة عليها قوارير وكؤوس. أردف:

- بينما ننتظر ألسوب، دعونا نتناول بعض المرطبات سويًّا. ماذا تفضلين يا سيدة لَفين؟ توت مجفف أم حُلو؟ أنا أعرف ما تُفضِّلَ سيدي الجنرال.

أخذ الجنرال مشروبه من الرائد شاكرًا، وهو يحدق في الجهاز المعدني. كان يبدو مُسالمًا تمامًا.

بالرغم من تلميح رايلي المستمر بأن النتائج قد تكون غير دقيقة نتيجة عدم كفايةالمعلومات المُتاحة، إلا أن كيرك كان متأكدًا أن ثمة مؤامرة ضد أخوية فان ترايلِن، ولن تضاهي الآلات قوة الحدس البشري.

في خلفية عقله، راحت الصور تتوالى كعرضٍ على آلة فانوسٍ سحري: سيارة مهشمة عند سفح سكوتلندي، وجه امرأة مشوَّه إثر طَلْقٍ ناريٍّ، رجل طويل محطَّم الأوصال تحت شرفة، جثة طفلٍ تجرفها الأمواج للشاطئ، بينما طفلة أخرى تصرخ على شفا الجنون.

أخيرًا رأى الصورة الأكثر حداثة: عجائز مسافرون لجزيرة بالا لحضور حفلهم السنوي مع الأطفال في الملجأ. كيرك نفسه كان مُسنًا ومولعًا بالأطفال، وبشكل ما صارت حمايتهم مهمته الشخصية.

نظر رايلي للهاتف أمامه قائلًا:

- يبدو أنك ستحصل على نتائج ما يا سيدي، فلو أن الكومبيوتر فشل في استنتاج أي إجابات، لكان ألسوب هاتفني خلال دقائق. أنا نفسي مُتعجب من أننا قد نحصل على نتائج من معلومات أغلبها مُشوَّش.

دخل ألسوب الحجرة، فسأله رايلي مُتحمسًا:

- ها قد جئت.. هل توصلنا لنتائج مفهومة؟

تجاهل الرجل يد رايلي الممتدة إليه، وأعطى كيرك الأوراق الملونة، فقد كان يعتبره رئيسه الحقيقي.

قال ألسوب:

- أنا لا أفهم سيدي الجنرال، ربما لا يعني ما توصلنا له شيئًا، فقد أمددتنا بما يزيد عن الثلاثين ألف كلمة، وها هي النتائج لم تكمل عدد خمسين كلمة.

- شكرًا جزيلًا لك.

نظر كيرك إلى الأسطر القليلة المكتوبة بخط أسود داكن، فلم يحتَجْ إلى ارتداء نظارته. شَحب وجهه وعبَس، وظهرت تجعيدتان على جانبي فمه.

- إلهي! جهازك أكد أسوأ مخاوفي يا نوربرت. هذه هي إجابة العرَّاف يا تانيا.

ناول تانيا الورقة، فقرأت:

مشروع فان ترايلِن، النتائج حتى الآن/ نجاح: ٤ – فشل ١.

تحصيل ممتاز. يجب على العمليات أن تكون أسرع. بدون معلومات أكثر، يقترح البرنامج التالي: الأعضاء المنشودين ٥ – الطرق: النار أو/و الماء. مكان مهجور، جزيرة بالا.

قام كيرك من كرسيه في وهنٍ قائلًا:

- أجل يا عزيزتي.. هذا ما أخشاه. هناك شيءٌ ذو هدف انتقائي أو فردي، يعمل ضد أخوية فان ترايلِن. خلال أيام سيتجمع مَن بقي من أعضاء في جزيرة بالا، وحين يحدث هذا، سيُقتل خمسة منهم بضربة واحدة.

***

أربعة من الأعضاء كانوا في طريقهم بالفعل.

مال لورد فاونلي خلفًا في كرسي القطار، وجواره إيريك بيتس. ابتسم كلاهما إلى ماري فالي الغافية على المقاعد أمامهم متوسِّدة فخذ السيدة راينهارت. بدت ماري سعيدة سالمة رغم كل المخاوف التي تعتمل في ذهنها. ذكرى تلك المرأة المجنونة تسحبها من شعرها نحو بئر السلم، بالإضافة إلى ذكريات أخرى لا تقل إفزاعًا.

ستكون آمنة وسط أصدقائها ورُعاتها، وستزول عنها المخاوف للأبد.

أزاح فاونلي الستار ونظر عبر النافذة قائلًا:

- الساعة الثامنة، سنصل قريبًا.

أقامت السيدة راينهارت الطفلة في وضع الجلوس وقالت:

- استيقظي يا حبيبتي. سنبيت في جلاسجو الليلة، وفي الصباح سننطلق إلى بالا، بيتنا الحبيب.

- بيتنا؟ رائع!

فركت الطفلة عينيها ونظرت إلى حيث ينظر فاونلي. ابتسمت لمرآى الطريق والأشجار، وموقف السيارات القديمة. شهقت فجأة وهي تشير عبر النافذة:

- هذا الصوت! الضوضاء والنيران!

أمسكت بيدها الأخرى ملابس السيدة راينهارت، وانخفضت صوتها لهمهمة ضعيفة.

- كان الأمر شبيهًا بهذا.. شبيهًا به! حين أحرقنا قطيع الماشية!

الفصل الثامن

- الحكومة مهتمة بالفعل. لكن يجب أن ننظر للموقف وأبعاده الحقيقية.

كان السيد إيفور مَد، وزير الدولة للشؤون الداخلية، رجلًا من ويلز، ذا شعر أسود حالك كطلاء الأحذية، وساق مُصابة من أيام لعبه للرجبي في الماضي.

- أنا آخر من ينكر أهمية إلقاء القبض على السيدة هارب، وبسرعة. لكنني لن أستسلم للابتزاز أو لَيِّ الذراع، خاصة وقد كانت المظاهرات الأخيرة مُرهقة للغاية.

أدار نظره بين الصحفيين الماثلين أمامه، ثم نظر لمساعده سائلًا:

- ماذا قلت لك عن هذا الأمر يا بومفريت؟

- إن مثيري الشغب هم من تسببوا في إقلاق اجتماعك مساء أمس، أولئك ممن يملكون خوفًا مرضيًّا من المرضى العقليين يا سيد مَد.

كان بومفريت على وشك استكمال حديثه، إلا أن رئيسه أزاحه جانبًا وقال هو:

- شيء كهذا. فسد اجتماعي بسبب مثيري الشغب ومَن خلفهم، وبسبب الصحفيين كذلك، أنتم يا أصدقائي!

نظر مَد إلى الحضور مجدَّدًا بعينه الواحدة، والتي تغطي أختها قطعة من القطن. كانت الإصابة بسبب حبة بطاطس قُذِفت عليه في اجتماعه الأخير.

- كما قلت مسبقًا، على المرء أن يكون واقعيًّا، لن أجبر على فعل شيء.

ملأ رئتيه بالهواء استعدادًا لترديد شعاره الشهير الذي كان سببه لفوزه في الانتخابات.

- اسمي مَد (وحل)، لكنني لست جبانًا ولا خسيسًا. فعلنا كل ما يمكن فعله لإلقاء القبض على تلك البائسة، ولن يضطرني أحد إلى أن أسلك طرقا غير قانونية. هل تظنني مضطر لأي شيء يا بومفريت؟

- بالتأكيد كلا يا سيدي.

خطا بومفريت خطوة نحو المنصة مُردفًا:

- الليلة الماضية، سيداتي سادتي، وبينما يعاني ألم إصابته، قال لي السيد مَد..

هذه المرة، كان الصحفي كارل جونستون من صحيفة الصدى اليومية هو من قاطع المُساعد بصوته الحاد العالي هاتفًا:

- سيدي الوزير، سؤال لو سمحت. لقد حضرنا جميعًا تظاهرات ليلة أمس، مثلنا مثلك، ونعي تمامًا أنك وحكومتك لم تكونوا في مناصبكم حين تم إطلاق سراح المرأة «التعسة» كما تنعتها. النقطة التي

أريد إيضاحها هنا هي أنها قتلت أربع مرات في حياتها، وتمثل خطرًا عامًا؛ لذا فالشعب يريد معرفة ما هي الخطوات التي تمت لاعتقالها قبل أن تَقتل مجددًا.

نظر مَد إلى الصحفي بعينه الواحدة، وبوجه مزرق من أثر الضربات قال:

- الشعب يعرف يا سيد جونستون. كل فرد من الشرطة في البلاد وفي القارة كلها لديه وصف مُفصل للسيدة هارب، وصورتها تطوف الصحف.

أخرج السيد جونستون نسخة من جريدة الصدى من جيبه هاتفًا:

- أترى هذا كافيًا، سيدي الوزير؟ من الجلي أن تلك المرأة تختبئ في بالا، تتحين الفرصة لقتل ابنتها. زميلي جون فورست الآن في الجزيرة، ويصف لنا المكان قائلًا: مكانٌ خالٍ تمامًا، مساحته حوالي أربعة آلاف ميل مربع، تعداد سكانه لا يزيد عن خمسة آلاف. الجزيرة تعد ملجأ للطيور البحرية والفقمات والغزلان. قوة الشرطة على الجزيرة تتمثل في عشرة رجال وامرأتين!

- وصلني الوضع التفصيلي لجزيرة بالا يا سيد جونستون. ولا أقرأ جريدة الصدى، ويبدو أن السيد فورست يكتب كليشيهات، وقد اعتاد عليها حتى صارت طريقة تفكيره مُعلَّبة مثلها.

- وجب عليك أن تبدأ قراءة الصدى سيدي الوزير.

ابتسم جونستون في خبث وقد نجح في إثارة حنق الوزير. أردف الصحفي:

- أيًّا كان رأيك في كتابات فورست، فقد أوضح الرجل أن رئيس شرطة بالا لا يملك العدد الكافي من الأفراد كي يمسح الجزيرة كلها، وعليه فيجب تعزيز القوات هناك.

- وهذا هو ما أرفض فعله.

لأول مرَّةٍ يضرب الوزير بقبضته على المنصة هاتفًا:

- لقد أعلنت أنني لن أُجبر على فِعْل شيءٍ، وأنا أعني ما أقول. فكرة إرسال فِرَق لصيد امرأة واحدة، فكرة لا ترتقي لأي معايير متحضرة، والحكومة توافقني على هذا الرأي.

هتفت صحفية:

- لكن آنا هارب مجنونة يا سيد مَد، وقد هاجمت طفلتها من قبل. لو كانت ماري فالي في خطرٍ؛ فأنت توافقني أن علينا فعل أي شيء لحمايتها، أي وسيلة وقتها ستكون مُبررة.

- في رأيي، لا توجد غاية تستأهل تبرير وسيلة غير قانونية يا سيدة.. مارجوري بانكس. لكن، هل ماري فالي حقًّا في خطرٍ؟ شرطة الجزيرة تراقب دار الأيتام بشكلٍ دائم، بالإضافة إلى أنه لا يوجد أيُّ إثباتٍ أن المجنونة في جزيرة بالا أساسًا. ما تراه سكوتلاند يارد أنَّ رفقاء المرأة من المؤسسات الإجرامية في لندن يخبئونها في مكان آمن، أو على أقصى تقدير ساعدوها في السفر خارج البلاد.

حكَّ مَد ضمادة عينه مُردفًا:

- سيداتي سادتي، بعضكم قد شهد تظاهرات ميدان ترافلجار، ومن مُنطلق أن المرأة ذات أصول مُختلطة، فأرجو أن تخففوا من النشر في القضية من الآن فصاعدًا. لا نريد استفزازًا للأقليات العِرقية الآن. ولدَيّ عِلم أن شهودًا قد رأوا آنا هارب في معدية متجهة نحو جزيرة بالا. رجلان آيرلنديان هما: شون كونور ودِّيزموند جويس. شاهداها في طريق عودتهما إلى لوتشيرن حيث يعملان. كانا قد رأيا صورتها في الصحف منذ يوم، وأبلغا الشرطة أنهما ربما.. «ربما» رأيا المرأة على متن العبَّارة. قالا إن غطاء الرأس الموصول بمعطفها كان يغطي أغلب ملامحها. الوحيد الذي عوَّل على تلك الشهادة الواهية السيد فورست من جريدة الصدى. أحتاج إلى ما هو أكثر من مجرد «صدى» كي أرسل فرقًا عسكرية إلى بالا.

- لندع للوزير فرصة استشارة مختصين أيها السادة.

قالها جونستون باسمًا في انتصارٍ؛ فقَدْ فقدَ الوزير تعقله في مؤتمر صحفي. أردف:

- كونور وجويس شابين ذوو نظر حاد، وقد قرأت تقرير زميلي وأعلم أن عامل الوقت ليس في صالحها. غادر الشابان جلاسكو ووصلا إلى ميناء تورار في منتصف نهار يوم الاثنين، وأقرب موعد لمعدية كان في الثالثة عصرًا. أتعجب أين أمضى الشابان وقتيهما خلال ساعات الانتظار الثلاث.

انحنى جونستون ضاحكًا وأكمل:

- اعذرني على شكوكي يا سيدي، يبدو أننا نحتاج أدلة أكثر على وجود المرأة في جزيرة بالا.

قال مَد:

-أشكرك. لا يوجد يا صديقي ما يحملنا على الظن أن ماري فالي في خطر. الدليل الوحيد على كونها تحتاج حماية هو كون السيدة هارب في الجزيرة، ولم يؤكد أحد وجودها سوى شاهدين لا يُعتمد عليهما. يبدو أنهما قد قضيا وقت الانتظار في مشرب أوملهى.

غَمَز الوزير بعينه السليمة مُضيفًا:

- نعرف جميعًا طباع الآيرلنديين.

- بالطبع يا سيدي نعرفها، فأمي آيرلندية.

تغيَّر صوت جونستون للحدة وأردف:

- لأن آنا هارب امرأة من جذور أفريقية، تطالبنا بالتكتيم على الأمر كي تتفادى ثورة عنصرية، بينما أنت ذاتك عنصري سيدي الوزير. أنت أهَنْتَ أمَّةً صديقة بلا أي مبرر، واتهمت شابين مهذَّبين بالسّكر البيِّن حتى أن شهادتهما صارت غير مقبولة بصدد رؤية امرأة تقف على بعد ياردات قليلة منهما، فقط لكونها آيرلنديين. هل تسمح لي بنشر ما قلت أنت حرفيًّا سيدي الوزير؟

- يمكنك النشر.

جذب بومفريت ذراع رئيسه، لكن الوزير تملَّص وأكمل غاضبًا:

- لقد نزعت جريدتك البائسة كل منطق من القضية يا سيد جونستون. لا يمكن أن نفترض أن آنا هارب في بالا بناء على شهادة شابين لا يعوَّل عليهما. غالبًا كانا مخمورين حتى إنهما كانا غير قادرين على التعرف على أمَّيهِما.

ثم طوح رأسه للخلف وألقى عبارته التي ستكون سببًا في إقالته:

- أرفض أن يلوي آيرلنديان مخموران من مثيري الشغب ذراعي.

***

بعد أربع ساعات من تصريحات الوزير، رن جرس الهاتف في مكتب شرطة لوتشيرن. كان المتصل رجلا يدعى أنجوس مَكبرايد، موظف لدى شركة إنشاءات تمد الطرق عبر جزيرة بالا. كان العمل قد توقف بسبب ظروف طقس الشتاء، وكانت مُهمة مَكبرايد أن يطوف على المُعدات الواقفة عند أماكن إنشاءات الطُرُق ليتأكد من سلامتها وعدم إصابتها بالصدأ. في مُستودع تابع للشركة، وجد عربة غريبة تحمل لوحة أرقام من لندن. أبلغ الرجل عن أرقامها ليجد أنها مُستأجرة من مؤسسة في بايزووتر منذ خمسة أيام. وفي كابينتها أبصر مَكبرايد أغراض أنثوية منها معطف بنيٌّ ملحَقٌ به غطاء رأس.

الفصل التاسع

- كش ملك يا ماركوس! عليك أن تُركِّز أكثر. سأُسديك بعض لنصائح المرة القادمة.

ثم بدأ كيرك في إعادة تنظيم قطع الشطرنج على اللوح الصغير المُعد للعب أثناء السفر، بينما حدق ماركوس عبر نافذة السيارة إلى الجبال والأشجار المُتسابقة.

- ليس لي مِزاج للَّعِب.

ثم مال على السائق الذي أقلَّهما من مطار جلاسجو سائلًا:

- متى نصل يا سيد مَكآدم؟

ابتسم الرجل له عبر المرآة مُجيبًا:

- بعد عشرين دقيقة تقريبًا. لكن قبل أن نصل، سَتَشم بلدة تورار أولًا. رائحة عفن خانقة تتصاعد من مصانع تعليب اللحم القديمة في يومٍ حارٍّ كهذا.

كان السائق يقود ببطءٍ مُريع منذ أن وصلوا للطريق الساحلي الضيق، وها هو يلتصق بجانب الطريق حتى يسمح لحافلةٍ بالمرور.

- جوٌ حار بالنسبة لهذا الوقت من العام أيها السادة، أتمنى أن يظل كذلك حتى نهاية إجازتكم.

- شكرًا لك.

التفت ماركوس للنافذة مرة أخرى، لقد وُلدَ وترعرع في الريف البولندي، ومرأى الجبال يبهجه عادةً، لكن مِزاجه المنحرف أضفى على الطبيعة الخلابة جهامةً وقتامة.

تذكَّر جلينكو وموبدارت وسكي.. ذكريات الخيانة والمذابح والحروب الدامية غير الضرورية أبدًا.

صمم كيرك على تشغيل نظام التدفئة في السيارة، وأبقا النوافذ موصدة. أشعل سيجارًا ليضيف لحرارة الجو سعيرًا.

ياله من أحمق كي يترك تانيا تقنعه أن يصحب تشارلز كيرك في تلك الرحلة غير المثمرة إلى بالا. لن يُنسِه تغيير الجو مقتل هَينس، فقد احترقت أعصابه تمامًا، وما عاد قادرًا على النوم بدون مهدئات. لكنه كان يعرف العلاج: أن ينخرط في عمله في معمل الأبحاث المركزي، وينسى تمامًا فشله السابق.

كانت زوجته وصديقه مقنعين، حتى إنه بدأ يشعر بالحماسة في البداية لأداء دور المُحقِّق، لكن الحماسة تلاشَتْ الآن.

والسيارة تمخر بين الجبال والشواطئ البيضاء، كان كل ما يشعر به الغضب من ضعفه.

كل هذا جنون.. هناك نفي رسمي لوجود آنا هارب على جزيرة بالا، وكل ما يفعلانه هو مجرد تضييع للوقت. الناس تموت ميتات عنيفة كل دقيقة، وكل شيء يعتبر محض صدفة. كل شكوك كيرك مبنية بالكامل على تكهنات حللها كومبيوتر.

خلال نصف ساعة سيكونان على متن معدية، وسيمضيان الليلة على الأغلب في فندقٍ صغيرٍ غير مريح. في الصباح سيقابلان أعضاء الأخوية في الملجأ ويحاولان تنبيههم لخطر محيق. يعتقد ماركوس أنهما سيستقبلا تحذيرهما بالسخرية على أقل تقدير.

رفع كيرك عينيه عن الخريطة التي كان يُراجعها سائلًا:

- ما بك يا ماركوس؟ لا تُعجِبَك المناظر؟

- المنظر بديع، لكنني لم أستمتع أبدًا بمطاردة أسراب الإوز البرية.

- ولا أنا، لكن في حالتنا أشك أننا نطارد إوزًا بريًّا بلا طائل. السُّلطات الرسمية تشاركك الرأي بشأن عدم وجود خطرٍ على الطفلة. لكن علينا ألّا نُهمل حدسي ونتائج صندوق الرائد رايلي السحري كذلك. شيء ما يحدثنيً أن الأخوية كلها في خطر داهم، وسعيد أنا أن تانيا نجحت في إقناعك بلعب دور الدكتور واتسون بينما ألعب أنا دور شيرلوك هولمز.

ابتسم في وجه ماركوس الغاضب، ثم رفع صوته محادثًا السائق:

- سيد مَكآدم، أنا مدرك أن الطريق ضيق وغير ممهَّد، لكن ألا يمكن أن تزيد سُرعتك قليلًا؟ لا أطابلك بدخول سباق سيارات، لكن يمكننا أن نجرب سرعة ثلاثين ميلًا في الساعة بدلًا من عشرين. علينا أن نلحق موعد العبَّارة.

- لا تقلقا، عندما استأجرتماني في جلاسجو، عاهدت نفسي أن أوصلكما لتورار في وقتٍ مناسب للحاق بالعبَّارة، وأنا رجلٌ يحترم كلمته. مؤمنًا بقدراتي.

- الإيمان شيء مقبول فيما يخص الأديان، سيد مَكآدم، لكن لا مكان له فيما يخص وسائل المواصلات الحديثة.

- استرخيا وتمتعا بالمناظر. هناك.. يمكنكما أن تريا القارب يعود إلى المرفأ، لا زال أمامه أكثر من ربع ساعة. ونحن سَنشُم عَبَق تورار في أي دقيقة من الآن.

- أستطيع أن أشمه الآن!

شم كيرك رائحة عفن مقيتة تقتحم منافذ تهوية السيارة، فراحَ يدخن في شراهة كي يغطي على الرائحة. كانت الشمس في طريقها للمغيب، بينما يرتفع الضباب من حولهم، حاجبًا عنهم جزيرة بالا، وجهتهم الأخيرة.

- هذا دليل أننا سنصل في موعدنا يا سيدي، لا داعي للتعجُّل.

أبطأ السائق إلى سرعة سير الإنسان حتى يسمع بحافلة وثلاث سيارة بالعبور.

- الأمان أولًا أيها السادة.. هذا هو شعاري. دع الآخرين يكسرون أعناقهم، أما نحن فنصل سالمين.

رغم صغر حجم تورار، إلا أن لها رونقًا يمنحها الإحساس بالضخامة والاكتفاء وكأنها مدينة كبيرة بالفعل. مرت السيارة جوار المسرح ومبنى المحكمة، ومصرفين، ومكاتب مختلفة للإعلان، ومبنى البلدية، وهو مبنى قوطي من القرن التاسع عشر، يزين مدخله تمثالان بديعان، أحدهما للأمير تشارلز إدوارت ستوارت، يرنو إلى السماء، والآخر للملكة فيكتوريا.

توقفت السيارة جانبًا وهتف السائق:

- ها قد وصلنا.

نزل ليفتح لهما الباب مُردفًا:

- وصلنا بأمان وفي الوقت المناسب كما وعدتكما.

كانت الزوارق مربوطة إلى رصيف المرفأ، وصناديق من السمك المُنظَّف تُنقل إلى شاحنات نقل. على اليمين كان مصدر الرائحة البشعة التي خنقتهم من مسافة ميل. صف من الأكشاك المعدنية لتصنيع طعام القطط. الطيور البحرية تُحلِّق فوق الرؤوس، بينما تصل العبارة الصغيرة وتُربط إلى الرصيف.

وعلى اليسار تصطف السيارات، وينزل منها الركاب آمِّين المرفأ.

- هاك السبعة جنيهات التي اتفقنا عليها يا سيد مَكآدم.

كيرك يكره القيادة البطيئة، فأخرج محفظته ببطءٍ كي يغيظ الرجل وأردف:

- وهذا يشمل البقشيش كذلك.

مجرد أن نزل كيرك من السيارة، شعر بيد تمسك مرفقه وصوت يهتف:

- جنرال كيرك من المخابرات بنفسه؟! يا لها من مفاجأة! وهذا سير ماركوس لَفين المرموق الفائز بجائزة نوبل!

كان الصحفي جون فورست يرحب بهما كأنهما صديقان قديمان. التفت فورست إلى شاب ثعلبي الملامح هاتفًا:

- بينما أحادث هذين الرجلين المهذبين يا آلفي، تأكد من ورود بريد جديد إلينا في المكتب.

ثم التفت إلى الرجلين متسائلًا:

- والآن، أي ريح طيبة أتت بكما؟

تراجع كيرك خلفًا في غضبٍ، فتصرُّف فورست قد أزعجه كثيرًا كأنه حشرة دخيلة على ملابسه. أجاب:

- يمكنك أن تسأل كما تشاء سيد فورست، لكن وجودنا هنا شأن شخصي، ولا أنتوي أن أخبرك بأسباب.

- لا تكن عنيدًا هكذا سيدي الجنرال. ماذا عنك يا سير ماركوس؟ أنت هنا في مهمة رحيمة كذلك تتولى فيها حماية فتاتك الصغيرة ماري فالي؟ هل قرأت الدعاية التي أغدق عليها بها بالمناسبة؟ مقالاتي وُزِّعَت حول العالم وجلبت للطفلة أموالا طائلة كتبرعات للدعم.

لم يكن ماركوس يشارك كيرك اشمئزازه من الصحفي، لكن لا شكَّ أنه مزعج ويوَدُّ أن يبث الحياة في موضوعاته بأي ثمن.

قال ماركوس:

- كيف للمرء أن يتجاهل كتاباتك، سيد فورست.

في البداية، جمع فورست كل ما يمكن عن خلفية آنا هارب وحياتها، ثم هرع شمالًا ليعايش الأجواء كاملة في منزل جميل يصخب بضحكات الأطفال. طفلة واحدة فقط لم تعد تضحك لأنها تنتظر هولًا. طفلة شقراء الشعر لا ترفع عينيها عن الأبواب والنوافذ، تحدّق في الظلام في الخارج نحو الجبال، حيث توقن أن امرأة مجنونة قد أقسمت على قتلها.

لا يعرف فورست الكثير عن التخاطر والصلات فائقة الحواس بين الأطفال وآبائهم، لكن يبدو أن ماري موقنة أن أمها في الجزيرة. وظلت كوابيس تطاردها بشأن أحداث ربما حدثت لآنا هارب في الماضي.

سأل ماركوس فورست في طريقهم لمكتب التذاكر، بينما وقف كيرك بعيدًا ينتظر عودتهما:

- أتعجب، كيف سمحوا لك بنشر هذا الهراء العاطفي سيد فورست. هل ثمة ما يدعم زعمك أن تلك المرأة في الجزيرة؟

راح لُغد فورست الشحيم يهتز وهو يقول:

- ليس لدي أدنى فكرة يا سيدي، يمكنني القول أنها ليست هناك على الأغلب. بالا جزيرة جبلية برية، ذات مخابئ عديدة، لكن ركوب العبَّارة يجذب الأنظار، خاصة بالنسبة لامرأة ذات ملامح مميزة كآنا هارب.

- هل سمعت آخر الأخبار؟ يبدو أن الوزير إيفوري مَد قد فقد تعقله في المؤتمر الصحفي، وقال إن الشاهدين كونور وجويس مخمورين، بالكاد يمكنهما التعرف على أمَّيهِما. صخب سياسي من السيد مَد، لكنني لن أتعجب إن كان مُخطئًا.

أومأ فورست تجاه حانة بالكاد تُرى من خلف مصانع التعليب وقال:

- استنادًا إلى أكثر مصادر المعلومات ثقة، فقد قضى الشابان ثلاث ساعات في حانة كاميرون هناك، شربا على الأقل ثمانية عشر كوبا من البيرة قبل أن يقلعا على متن العبَّارة. لذا، فأنا لا أعتقد أن السيدة هارب في بالا، بل غالبًا تختبئ في جحر فئران في لندن. عموما أنا شاكر لها ولابنتها على القصة.

ماري طفلة بغيضة يا سير ماركوس. رأيتها في الحفل السنوي في دار الأيتام، ولم أرَ طفلة متعجرفة راضية عن نفسها مثلها. مهما كان ظن الراحل بيتر هَينس بشأن سلامة عقلها، فأنا لم أرَ فيها أي اضطراب عقلي.

عاد الرجلين لكيرك الذي سألهما:

- أكان الحفل أمس؟ كنت أظنه غدًا!

- كان كذلك، لكنهم قدموا الموعد يومين. لِكولس أخبرني أن بعض الأعضاء لديهم مواعيد عمل لا يمكنهم تأجيلها. يا لَه من رجل سمج! ظل يخطب في الأطفال خطبة طويلة، ثم تبع خطبته بحيل سحرية! ثمة شيء واحد أريد إخبارك به، أخوية فان ترايلِن لا يخشون أبدًا من هجوم آخر من آنا هارب على الطفلة. قلتما إنكما هنا لشأن خاص، هه؟

أطلقت العبَّارة البخارية بوقها مُعلنة قرُب الإبحار. ابتسم فورست ناظرًا إلى حقيبتيهما وقال:

- اعتقدت أن القصة انتهت، وها أنا أجد شخصيتين مرموقتين تصلان إلى المشهد، فأبدأ بالتساؤل..

أدار نظره بين العبَّارة وصفّ السيارات العائد إلى المدينة وقال:

- هل أعود للمدينة، أم أن هناك ما يستأهل العودة إلى بالا؟

بحث في جيبه عن عملة، ثم وجد رفيقه يأتي مهرولًا ناحيته. هتف فورست:

- لمَ العجلة يا آلفي؟ لم أكن أظنك قادرًا على الهرولة بهذه السرعة. هل اندلعت الحرب؟ هل نزل نبيٌّ من السماء؟!

راح آلفي يلهث ويقول:

- كلا يا سيدي.. لكن كل كلمة كتبتها تأكَّد صدقها. وجدوا سيارة مجهورة في بالا تحمل لوحة أرقام لندن..

أخرج فورست ورقةً نقدية من جيبه، وأشار بها في انتصار نحو كيرك وماركوس هاتفًا:

- خمنا لمن السيارة؟! الشابان الآيرلنديان كانا صادقين رغم كل شيء، وقد رأيا بالفعل آنا هارب على متن العبَّارة. يبدو أن هناك مستبصرَين آخرَين سوى آنا هارب.. أنتما!

كان آلفي يحدق في فورست وكأنما يشهد مُعجزةً. قال الأخير:

- ثمة ما يجب فعله.. سير ماركوس، جنرال كيرك، اسمحا أن أدعوكما إلى مشروب على متن العبَّارة.

ثم غادر سريعًا نحو مكتب التذاكر.

***

قال ماركوس:

- أتفق معك يا تشارلز، فهو شخص قميء، لكنه كفء.

كان فورست قد توجَّه فورًا إلى المشرب على متن العبَّارة، بينما وقف كيرك وماركوس عند السور يشاهدان إقبال بالا عليهما بجبالها الشواهق الشبيهة بأنياب تطل من خلف الضباب.

قال كيرك:

- فرضنا إنه كُفء.. هل توافق أننا كنا مُحقين بشأن مجيئنا يا ماركوس؟

- على العكس. نحن نعرف أن المرأة في الجزيرة، مجنونة وحيدة سيصطادونها كحيوانٍ ضارٍ. على الحكومة أن ترسل تعزيزاتها لشرطة الجزيرة.. رجال وكلاب وآلات، كل هذا لمواجهة امرأةٍ واحدة مجنونة. أعرف أن كل هذا ضروريٌّ، لكنني لا أرغب أن أشارك فيه. أتذكُر جوستاف هولتساخ؟

- بالتأكيد، كان مجرم حربٍ، أُلقي القبض عليه في ميونخ منذ خمسة أعوام. ألم تحضر المحاكمة يا ماركوس؟

- كنت شاهدًا ضده فيها. هولتساخ كان مسؤولًا عن معكسر نقل عمال بالسّخرة، وكنت واحدًا من سجناء هذا المعسكر لفترة. عندما ألقوا القبض عليه، كان يعيش في قرية بافاريَّة ويعمل كناظر مدرسة محلية. كان محبوبًا، ولديه ثلاثة أطفال. أنا شهدت هولتساخ في مجده يا تشارلز، وذقتَ سَوطه، ورأيته يعذِّب امرأة حتى الموت ضربًا بالعصا وهو يضحك. لقد شعرت براحة عظمى عندما شهدت ضده. لكن عندما أُحضِرَ إلى المحاكمة كان مسنًّا عن آخر مرة رأيته فيها. كان مُختلفًا تمامًا.. فزِعًا.. وكل ما شعرت به تجاهه هو الشفقة.

- هو شعور محمود يا صديقي، لكن حالتنا تلك مُختلفة.

أفرغ بحَّار دلوًا من أحشاء السمك في البحر، فتعالت صيحات طيور البحر. رفع كيرك صوته فوق صوتهم مُردفًا:

- نحن نعرف أن آنا هارب في الجزيرة، وعلى الأغلب سيجدونها قريبًا وسيرغمونها على الاعتراف. وعندما تعترف، سيتغير ظنك بكونها مجرد مجنونة وحيدة. سنتأكد أنها عضوة في منظمة تعمل ضد أخوية فان ترايلِن.

- أنا لا أحتاج إلى إقناع، بل الأخوية هي من تحتاجه يا تشارلز.

شعر ماركوس بالقلق الشديد والاضطراب. يبدو أن خَرَف كيرك في ازدياد، فقد رأى بنفسه آنا هارب ويعرف أنها مريضة عقليًّا. كل نظريات كيرك تبدو غير متسقة تمامًا مع تلك الحقيقة.

قال كيرك:

- عليَّ أن أقنعهم يا تشارلز. كما تعلم، فقد تحدثت إلى ثلاثة منهم حتى الآن: فاونلي، والسيدة راينهارت، وجورج لِكولُس. كلهم سخروا من تحذيراتي، لكنني أشعر أن كل منهم يخفي أمرًا مفزعًا. ربما أن حدسي هو ما يحركني، لكنني موقن أنهم مدركون أن وفياتهم لم تكن صُدفةً، لكنهم لسببٍ ما ينكرون هذا.

- وأنت تظن أن حديثك إليهم مجتمعين قد يحفزهم لأخذ تحذيراتك على محمل الجد؟

ظهر في خيال ماركوس صورة كيرك يخطب في أعضاء الأخوية كأنهم في فصل دراسي. صديقه العجوز يفقد عقله.

حسب كلام فورست، هؤلاء الأشخاص مطمئنين تمامًا. كلهم أغنياء ذوو سُلطة. ردَّ كيرك على تساؤل صديقه:

- لا أظن يا ماركوس، لكن إن استطعت جمعهم لاستطعت كسر المحاذير. أنت صغير السن نوعًا، ولن تفهم خوف الكبار من الموت.

- حقًّا؟ أنا طبيب لو تذكُر، وقد نجوت من وارسو جيتُّو وبيلسين، وكذلك شهدت زوجتي تموت بالحمى الصفراء.

- لا أنكر أنك شهدت الموت أكثر مما شهده أغلب الرجال، لكن كان هناك أملٌ دومًا، أليس كذلك؟ أملًا في أن ينقذكم الصليب الأحمر في وارسو، أملًا في أن تنجو من بيلسين، أملًا في أن تتعافى راشيل من الحمى. لكنك لم تخبر أبَدا حتمية الموت الذي يشعر بها من هُم في سني. اليقين بأن أعضاءك تفسد وتعجز عن التجدُّد، ولا شيء يستطيع إيقاف هذا التدهور. الشيء الوحيد الرحيم هو تدهور المخ كذلك، ذلك التدهور الذي يُمكِّنك من تقبل هزيمتك على يد عدوك الأخير.

- ثم؟

- ثم إنه لا يوجد مَن لا يخشى الموت. المرء منا يتقبَّل الفكرة تدريجيًّا ثم يرحب بها. على صعيدٍ آخر، العجائز يبحثون عن سُبُل الخلود. الإيمان بدَينٍ يعدك بحياة أبدية بعد الموت هو أول السُّبل، ثم بعدها يأتي سبيل الأطفال. أنت تعرف أنه كان لدي طفلان، مات أثناء الحرب. حتى الآن كنت أتصور أنني قد تعايشت مع تلك الحقيقة المؤلمة، لكن مع مرور السنوات، أجد نفسي أفكر فيهما مرارًا وتكرارًا.

كان كيرك ينظر إلى الأفق، إلى ما خلف بالا، إلى المحيط الأطلسي. ماركوس يعرف أن ابن كيرك في مكان في أعماق المحيط، حبيس في قلب غواصة غارقة.

أردف كيرك:

- أظن أن هؤلاء القوم مسنون لدرجة تجعلهم لا يهتمون بحماية حيواتهم، لكنهم بالتأكيد سَيهُبُّون لحماية الأطفال تحت رعايتهم.. أملهم في الخلود. إن استطعنا إقناعهم أن الأطفال كذلك في خطرٍ، وأن الطفل لم يغرق بالصدفة، وأن آنا هارب تتحين فرصة لقتل ابنتها، ربما يصغون وقتها لتحذيراتنا. آمل ذلك.. مجرد أمل. من خلال حديثي مع فاونلي، فهمت أن أولئك الأطفال يمدونهم بأسباب الحياة.

وجدوا فورست خلفهما، فرغم وزنه وضخامته، إلا أنه يتحرك بخفة الأمواج ورشاقة طيور البحر. سأله كيرك منزعجًا:

- هل تتصنت علينا؟

- يمكن أن تقول ذلك سيدي الجنرال، رغم أن الكلمة غير لائقة.

ارتكن فورست على السور وراح ينظر لهما متسائلًا:

- هل لي أن أعرف طبيعة تلك المنظمة المشؤومة التي تهدد أخوية فان ترايلِن؟ يبدو أنني أحيا يومَ حظي! فحكاية آنا هارب مسلية، لكن ما تقولانه مثيرٌ أكثر. لا تحدثني عن السرية لو سمحت، فلستم هنا في مهمة شخصية، فلا تهددني.

احمر وجه كيرك وهو يقول:

- أنا لا أهددك. لكن مالك الجريدة التي تعمل فيها صديق لي، ولو نشرت كلمة واحدة فلن تعرف من أين ستسقط عليك المصائب.

- أعرف أنك قادر على ذلك سيدي الجنرال.

كان فورست محتفظًا بابتسامته، لكن صوته خالطه شيءٌ من الجدية. أردف:

- لمَ تمنعني من نشر شكوكك؟ لو أن هناك مَن يعمل لتدمير الأخوية، فمن الأفضل أن نعلن تلك الحقائق. لو أنكم وثقتم بي مبكرًا، لكنت وفرت عليكم مشقة عظيمة. أنتم تريدون الحديث مع كل أعضاء أخوية فان ترايلِن، لكنكم قد تأخرتم. الحفل انتهى سيدي الجنرال، ويمكنني أن أريك صفًّا من سيارات الرولز رويس على متن هذه العبَّارة الخاصة العملاقة هناك.. بالقرب من الجزيرة.

صاح كيرك مستشعرًا الهزيمة:

- أتعني أن أعضاء الأخوية على متن العبَّارة المُبحرة هناك؟!

كان ماركوس مُحقًّا بشأن مطاردة الإوز البري. وكان كيرك واثقًا من نتائج الكومبيوتر، وأن هناك شيئًا سيحدث في بالا.. لكن.. لكن الضحايا المحتملين يغادرون الجزيرة في سلام! يبدو أن أوهامه ومخاوفه كانت بلا أي أساسٍ.

أكمل فورست:

- لا أعرف كم عدد من غادروا، لكني أعرف أن أغلبهم سيغادرون الليلة.

كان فورست ينظر للعبَّارة الخاصة في حسدٍ، كانت فاخرة مستقرة للغاية.

- عبَّارة مميزة للغاية فعلًا، ذات محركيّ ديزيل كما سمعت، مما يوصل سرعتها لثلاثين عقدة. مزودة برادار وصالة استقبال ومعدَّات نوم. أصدقاؤنا في الأخوية لا يعجزون عن بذخٍ كهذا.

نظر ماركوس لمقدمة العبَّارة وقال:

- لا يبدو أنهم متوجهون للجزيرة الرئيسية.

- لا، بل هم متوجهين إليها. القناة مليئة بالصخور، وغالبًا رادار العبَّارة يتحرك بعيدًا ليتفاداها ليس أكثر.

- بالطبع لا.. انظر..

كانت عبَّارتهم في طريقها للالتفاف عَرضًا. أضاف ماركوس:

- يبدو أنها تعاني مشكلة ما وتتوجه إلينا.

صدح بوق العبَّارة الفاخرة، ولم تغير سرعتها أو اتجاهها.

- العبَّارة تغرق!

قبض كيرك على السور منحنيا ليرى أفضل وصاح:

- كلا.. انظر إلى الدخان!

كانت العبَّارة تقترب، ورأيا ما كانا يظنانه بخارًا من المحركات.. كان دخانًا أسود. أمسك كيرك ذراعي فوست وتشارلز وجذبهما أرضًا صائحًا:

- انبطحا!

وتوهجت السماء بانفجار برتقالي عنيف.

الفصل العاشر

- لقد أنذرتنا بشكلٍ واضحٍ ومباشر سيدي الجنرال كيرك، ولم ننصت لتحذيرك.

قالها الكابتن مايلز سينكلير كاميرون، رئيس شرطة الجزيرة، وهو يلكم المكتب. كان رجلًا سمينًا مدبوغ الجلد بفعل الشمس. راح يحدق بعينيه ثقيلتي الجفنين عبرَ فناء مكتب شرطة لوشيرن، والذي يكتظ بما يفوق سعته.

وقف مُفتش يرتدي زِيَّ العمل جوار الباب، بينما جلس ماركوس وكيرك ونقيب بحرية شاب على مقعدٍ ضيقٍ، وجلس على الكرسي الوحيد الخالي إيريك بيتس، الذي كان يحدق في الأرض في صدمةٍ عميقة.

قال رئيس الشرطة:

- لقد حذرتنا سيدي الجنرال، وهاتفت المفتش جرانت وكتبت لي بشكلٍ خاصٍ. أخبرتنا بأن ثمة كوارث قد تحدث ولم نعبأ بكلامك. وها نحن أمام أسوأ مأساة تعرضت لها الجزيرة، ستة من أفضل الناس يُقتَلون أمامنا بهذه الطريقة!

حدق بعينين محتقنتين بالدماء في المباني خارج نافذة مكتبه. بوسعه أن يرى مُجمع الكنائس مختلفة المذاهب، جواره يقبع مبنى رمادي متجهم هو سجن المدينة العتيق. جوار السجن شُيدت الخيم والحُجرات القماشية المُعدة لاستقبال الجنود الذين سيصلون قريبًا.

كانت الأحداث تُثقل على روح كيرك الذي تكلم ببطءٍ قائلًا:

- لا داعي لأن تؤنبوا أنفسكم يا سيدي، فقبل كل شيء، الحكومة نفسها رفضت تصديقي. فكل ما تلقيتموه كان تحذيرًا من فردٍ واحدٍ، ولا يلومنك أحد على تكذيبي.

لازال منظر اللهب البرتقالي المتصاعد من وسط رمادية الدُّخان عالقا في ذهنه، مخلوطا بصرخات جون فورست المُتألمة.

قال كاميرون رئيس الشرطة:

- كلا سيدي الجنرال، كان علينا تصديقك وأنت من أنت. وها قد تم إثبات صدقك. المهم، لا تخاطبني بلقب سيدي مرة أخرى، فيكفيني كابتن أو حتى كاميرون بلا ألقاب.

ثم أخرج منديلًا قماشيًا ورديًّا وأفرغ فيه أنفَه بعنفٍ غير مبرَّر، ثم أردف:

- الآن، لنسمع شهادة سيادة النقيب. نجح رجالك في اصطياد رفات ثلاثة أشخاص، وأشك أنهم سيجدون المزيد.

- أنت مُحق. كما تعرفون جميعًا فحركة المياة سريعة للغاية عبر القناة، وعلى الأغلب باقي الجثث قد وصلت إلى المحيط الأطلسي الآن. أرسلنا غواصين بحثًا عن جسم العبَّارة الغارقة، لكنهم لن

يستطيعوا الوصول إلى أعماق أكبر لو لم يتحسن الطقس.

أومأ كاميرون قائلًا:

- جسم العبَّارة معدني، أليس كذلك؟ مما وجدتموه حتى الآن من حطام، لن نستطيع معرفة كيف حدث الحريق بالضبط.

- مستحيل معرفة ذلك. ظننا أولًا أن لغمًا بحريًا قد صدمها، فما زلنا نجد ألغامًا حول الساحل، لكن شهود العيان نفوا ذلك. أشك أنه عمل تخريبي، لكن لا أملك دليلًا على صحة ذلك الافتراض.

- دعونا نسمع افتراضك، أفضل من لا شيء.

نظر النقيب الشاب نحو بيتس في قلق، وكأن كلامه قد يزعج عُزلة حُزنه، ثم قال:

- إن كان عملًا تخريبيًّا، والمُخرِّبة تعرف ما تفعله جيدًا، ففكرة استخدام المتفجرات لن تكون بعيدة أو صعبة التنفيذ. كان ثمة مستودع للديناميت قريبًا من حيث وجدوا السيارة المشتبَه بها. رغم كون المستودع مُهملًا منذ زمنٍ، إلا أن حارس المكان يدعي أن بعض المتفجرات قد اختفت. إهمال جسيم من أصحاب المكان بالطبع.

- توافر الديناميت من عدمه ليست عقبة، فالكثير من سارقي البنوك يسرقون المتفجرات بسهولة. كل ما يشغلني هو مسألة توقيت الانفجار، فهو أمرٌ معقدٌ. تذكَّروا أن السيدة هارب ما كانت تعلم موعد إبحار العبَّارة. عمومًا هذا حديث سابق لميعاده.

كان كاميرون مستيقظًا طيلة الليل، فلم يعبأ بإخفاء تثاؤبه. قال:

- لكن كلامك مهمًّا أيها الشاب. مشكلة أخرى في التوقيت، وهو وقت بلوغ العبَّارة مسافة كافية من الشاطئ بحيث لا يمكن إنقاذها.. ما هي آلة التوقيت التي يمكن أن تكون قد استخدمتها؟

التفت النقيب إلى بيتس المنحني جالسًا وقال:

- نظام الوقود يا سيدي. دكتور إيريك، هل صحيح أن من قام بالإبحار هو السيد لِكولس، والذي كان يخطط للعودة إلى بالا بعد إيصال الخمسة أعضاء الراغبين في الرحيل إلى المرفأ؟

أومأ الطبيب إيماءة بطيئة حزينة، أكمل الرقيب:

- شكرًا لك. هل صحيح أيضًا أنكم كنتم تحتفظون بمؤنة من البنزين بالقرب من الملجأ، لكنكم لا تحتفظون بوقود الديزيل، لذا قرر السيد لِكولُوس إعادة ملء خزان العبَّارة في تورار قبل أن يعود؟

- أعتقد ذلك. أعتقد أن لِكولس قال إن هناك تسريب زيت من المؤنة الأساسية، لكنني لست متأكدًا.. آسف، فبعد ما حدث، لم أعد قادرًا على تذكر أي شيء.

- إن كانت كمية الوقود منخفضة في خزانات العبَّارة، فربما يطفئ السيد لِكولُس محركات الديزل الأساسية ويبدأ في استخدام الخزان الفرعي..

- مقصدك مفهومٌ.. لو أن أحدهم أفرغ الخزان الثاني وملأه بالبنزين المتوفر بكثرة في مخزن الملجأ، فيمكن أن يوصِّل البنزين في الخزان بمفجِّر ويوصل الأخير بإصبع أو اثنين من الديناميت ويلصقهم بالمحرك. ماذا يحدث إذًا؟

- يحدث ما حدث يا سيدي.. لقد اتصلت بصُناع العبَّارة وقد أكدوا شكوكي. التحويل إلى الخزان الفرعي يتم بشكل تلقائي عندما يصل الديزل في الخزان الرئيسي إلى جالونٍ واحدٍ. بعدها تبدأ المحركات في العمل بخليط من الديزل والبنزين وتنتج طاقة عالية ربما لا تُلاحَظ. بمجرد وصول البنزين النظيف إلى حجرة الاحتراق، فإن طوق (جوان) الأسطوانة يتمدد، أو ينفتح، وينفجر الديناميت.

- ممتاز! فرضية ذكية وغالبًا صحيحة.

أفرغ أنفه مرة أخرى وأردف:

- فرضيتك أيضًا مؤيَّدة بالمعلومات التي وصلتنا من المفتش جرانت. أخبِر الجنرال كيرك بما لديك أيها المفتش.

- بالتأكيد.. لكنني لم أشعر بالذنب تجاه تجاهلي لتلك المعلومات من قبل. من السهل أن تكون ذكيًّا بعد أن تقع الواقعة. منذ ليلتين، طفلة من أطفال الملجأ استيقظت في الصباح الباكر، ونظرت من نافذة حجرة النوم. زعمت أنها رأت شخصًا يجول حول الملجأ. كان النهار لم يبزغ جيدًا، ولم تستطيع أن تحدد إن كان الدخيل رجلًا أم امرأة. بالطبع لم نلقِ بالًا لقصة غالبًا هي محض خيال أطفال.

- ولأنك لم تلق بالًا، فقد فقدنا ستة أشخاص.

للمرة الأولى يرفع إيريك ييتس رأسه. أردف:

- الأمر سهل، أليس كذلك؟ تستبدل وقود الديزل بالبنزين وتوصله بالمتفجرات فيموتون جميعًا. إيليك ميسون، بيتر فليتشر، لِكولس، سيلفيا راينهارت، ستاركر، مالكولم ستار. ستة أصدقاء يرحلون في لحظة واحدة، والآن الجنرال كيرك يخبرنا أن من مات منَّا سابقًا، مات بفعل فاعل أيضًا!

التفت نحو ماركوس مضيفًا:

- لماذا قد يريد أحدهم تدميرنا يا سير لَفين؟ هل تلك المرأة المجنونة مسؤولة، أم كما يزعم الجنرال، ثمة منظمة تسعى لتدمير أخويتنا؟ من آذينا؟ ماذا فعلنا لنستحق كل هذه الكراهية؟!

راح ماركوس يحدق في كفي الرجل اللتين لم تكفا عن الاهتزاز، فأمسك بهما مسندي الكرسي. قال:

- هوِّن عليك يا دكتور ييتس.

كان ييتس قد اشتهر في الماضي بأنه أسرع وأمهر جرَّاح في البلاد. كان يحب إلقاء الخطب في المناسبات، وتقديم الجوائز في حفلات التكريم، والآن هو عاجز حتى عن التوقيع باسمه.

أردف ماركوس:

- سوف يجدون المرأة قريبًا، وسنعرف حقيقة كل شيء.

- تطلب مني أن أهوِّن على نفسي وقد مات أحد عشر شخصًا منَّا؟ لولا أن بعضنا قرَّر البقاء لحضور حفل الألعاب النارية، لكانت العبارة أقلتنا جميعًا في طريق العودة، ولَمتنا من فورنا! الحفل السنوي ممل للأطفال؛ لذا قررنا منذ زمن أن نمنحهم حفلًا آخر يوم الخامس من نوفمبر بدون...

أخفض بيتس رأسه، خجلًا من إظهار الدموع في عينيه. فتح كاميرون خزانة وأخرج منها زجاجة وكأسين وقال:

- لا تقلق يا دكتور بيتس. سنلقي القبض على آنا هارب قبل أن تحاول فعل شيء آخر. القوات المعزِّزة في طريقها إلينا. والآن، اشرب هذا.. وسكي نقي ولا شيء أفضل منه لتوتر الأعصاب.

وقف كيرك ناظرًا عبر النافذة إلى المدينة الغافية، وقد بدأ الصحفيون والفضوليون في التجمهر. سأل:

- كم من الوقت تحتاجون لمسح الجزيرة بأكملها؟

الجزيرة جبلية، أغلبها مهجور إلا من الماعز الجبلي والصقور. ثمة أماكن لا يعرف عنها أحدٌ شيئًا، وكهوفًا بِكر لم يطأها إنسان. والآن الشرطة المحلية وبعض المتطوعين يمسحون كل تلك المناطق بحثًا عن شبح قبل أن تصل الإمدادات. امرأة واحدة في مقابل جيش.

الجزيرة خالية وعرة، وسيتطلب الأمر وقتًا طويلًا لإيجادها. شعرَ كيرك بالذنب كونه لم يحب فورست، الصحفي الذي دفع كثيرًا مقابل تحقيقٍ، وها هو الآن راقدٌ في المستشفى إثر اصطدام قطعة من حطام العبَّارة به. كان الرجل محقًّا وقرر كيرك أن يعتذر له.

أجاب كاميرون:

- الله أعلم سيدي الجنرال. الجزيرة كبيرة، ومنذ الحرب العالمية الثانية وتعداد السكان في انخفاض، وقد وصلنا لتعداد خمسة آلاف نسمة فقط، أغلبهم حول لوتشيرن. الجزيرة مليئة بالكهوف أيها السادة حتى إن فنادق الجزيرة تعاني الركود، فالسياح يفضلون المبيت في الكهوف الواسعة المتعددة أو المباني المهجورة من أيام الحرب. هناك مُطالبات مستمرة بهدم تلك المنازل ليعود الرواج للفنادق.

أشار كاميرون لبيتس المحني على كرسيه، وقد أضفى الويسكي على وجهه لونا، وأردف:

- منزل إنفر كان بالكاد خرابة قبل أن تشتريه الأخوية منذ سبع سنوات. وهناك كذلك عدد من المنازل المهجورة الأخرى. أعدك أن نجد آنا هارب، لكن امنحنا بعض الوقت.

استعاد ماركوس نظرية كيرك عن وجود منظمة تعمل ضد الأخوية، وسأل:

- لكن بعد أن نلقي القبض عليها، هل سينتهي الخطر؟

الأحداث الأخيرة كانت تتلاعب بتفكيره، فقد عرف المرأة وجنونها، ويستطيع تخيلها تنفذ هجومًا آخر على الطفلة أو على أفراد من الأخوية ممن تعتقد أنهم قد سرقوا ماري منها. يمكن أن تستخدم في هجومها سكينًا أو مُسدَّسا أو حتى يديها. لكن هذا التخطيط المُنمَّق الذكي لا يناسب شخصيتها أبدًا.

تساءل ماركوس:

- كيف نعلم أن آنا هارب تعمل وحدها؟ أو أنها مسؤولة عن تخريب العبَّارة؟ استخدام الديناميت وتبديل البنزين والديزيل يوحي بيدٍ خبيرة لا تمتلكها.

أخرج المفتش جرانت ملفًّا من خزانة وهو يقول:

- بل تملكها يا سير ماركوس. هذا هو ملفّ سكوتلاند يارد عن آنا هارب. حتى وقت قريب، لم يكن كاملاً لأنها خلال الأعوام ١٩٦٠-١٩٦١- كانت تعيش خارج البلاد مع هذا الرجل.

أعطى المفتش نسختين عن صورتين لكيرك وماركوس ثم أردف:

- غالبًا تعرفانه.

- أعرفه.. سمعت عنه فقط.

راح كيرك يحدق في الصورة وهو يفكر. وجهٌ وسيمٌ، جبهة عريضة، أنف قوى، عينان صافيتان مبتسمتان. لكن الوسامة تتوقف عند هذا الحد؛ فنصف وجه السفلي كان قبيحًا، بلا ذقن تقريبًا.

راح كيرك يترجم عن الفرنسية:

- روبيرت نورد، بطل من أبطال المقاومة معروف بلقب العصفور. كان عضوًا في جماعة هاجمت ودمرت قطارًا ألمانيًّا خارج بلدة ليلي في يناير ١٩٤٣. وقاد الهجوم على محطة إذاعة فيلاّفيجنيتِّي في سبتمبر من ذات العام. ومنذ عام ١٩٤٤ حتى نهاية الحرب، قيل إنه قد دمر على الأقل ١٨ عربة حربية. حصل على عضوية فيلق الشرف سنة ١٩٤٥.

أنهى كيرك قراءة التقرير، وفكر في أن العصفور قد طار كثيرًا، لكنه كذلك لم يقدر على الاستقرار. خلال فترة السلام، اتِّهم بالسرقة والنصب وعدد من الجنَح. وعندما تحولت الثورة الإسلامية في أفريقيا إلى حربٍ أهلية، انضم نورد إلى منظمة الجيش سري، وراحت قنابله تعوي في شوارع الجزائر وأوران. ثم أخيرًا، جلب الحرب لوطنه، فرنسا، على هيئة عددٍ من المُخربين نزلوا في ميناء مَرسِليا ووضعوا قنابل موقوته في مصفاة تكرير بترول، ومات في التفجير ثمانية رجال وامرأة وطفل بالإضافة إلى المفجرين أنفسهم. في عام ١٩٦١، تم إعدام روبيرت نورد بالمقصلة.

أعاد كيرك الأوراق للمفتش قائلًا:

- أجل يا ماركوس، إن كانت السيدة هارب عشيقة هذا المخبول، فإنها تعرف كيف تُفجر عن بُعدٍ.

حدَّق ماركوس في صورة نورد التي تفتقر إلى ذقن في إعجاب وقال:

- لكنني بَعد لا أرى الدافع. مما قرأت من ملاحظات هَينس، فتملك المرأة كراهية معينة تجاة ابنتها، وتجاه الأخوية التي سرقتها منها. ونعرف أيضًا أنها كانت مدمنة، والمدمنون يُستَغلّون من قِبَل موزعي المخدرات. لكنني بعد لا أستطيع ابتلاع كونها فجَّرت العبَّارة وحدها.

قال كاميرون:

- أمرٌ غير مُرجَّح يا سير ماركس. لقد وجدنا بصمات المرأة على السيارة المشتبه بها، والتي أجرتها من لندن، ونعرف من خلال ذلك أنها في بالا. بحلول ظهر الغد، سيمشط الجنود أنحاء الجزيرة وسيجدونها في الوقت المناسب. وعندما يجدونها، ستتكلم وسنعرف منها كل شيء.

رن الهاتف فاستأذن كاميرون قائلًا:

- اسمحوا لي.. أجل، مساء الخير سيدة آليسون، ماذا هنالك؟ منذ ساعتين؟ وقد فتشتم المبنى والأراضي من حوله؟.. لا داعي للقلق سيدة آليسون، فقط انتظري لحظة.

غطى كاميرون سماعة الهاتف بكفه وقال همسًا لجرانت:

- طلبت منك أن تترك رجل لنا داخل الملجأ، وأن تغلق المنطقة كلها. هل فعلت كما طلبت؟

- كلا يا سيدي، لم أفعل. السيدة آليسون مديرة المكان نفسها رفضت أن أترك شرطيًّا داخل الملجأ بحجة أن وجوده سيزعج الأطفال الذين يجهلون كل شيء عمَّا يحدث. بالنسبة لطلبك أن نغلق المكان المحيط تمامًا، فأنا لست ساحرًا.

خطا المتفتش نحو الخريطة المعلَّقة، وأشار إلى بقعة بعينها مُردِفًا:

- طلبت من رجلين، واحد منهم بصحبة كلب بوليسي، أن يحرسا أسوار الملجأ خلال ساعات الليل. وقد أغلقنا الطريق تمامًا. لم يعد تحت إمرتي إلا ستين شخصًا بما فيهم التعزيزات والمتطوعين، وقد أمرت أن نمشط الجزيرة. لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت حتى تصل التعزيزات.

- حسنًا أيها المُفتش.

رفع كاميرون كفه عن السماعة هاتفًا:

- سيدة آليسون.. كما قلت، لا داعي للقلق. يبدو أن الطفل يلاعبكم وقد يكون مُختبئًا في مكانٍ ما.. هذا هو ديدن الصَّبية، فلدي ثلاثة في المنزل! سيخرج من مخبَئِه عندما يجوع أو يمَلّ. نصيحتي، قوموا ببعض الصخب وأنتم تعِدون الطعام. فقط أعطني وصفًا له على سبيل الاحتياط.

راح كاميرون يكتب في مُفكرة وهو يردِّد:

- سيدني مولسون، سبع سنوات وشهر.. طويل، ذو شعرٍ فاتح، يضع تقويمًا للأسنان. لم يظهر منذ ساعتين. لدينا مراقبين خارج الملجأ، وأنا متأكد أن الطفَل في مكان ما داخل الأسوار. في الوقت الحالي أبقِ على الأطفال سويًّا، وسأهاتفك في أقرب وقت.

كان كاميرون يتحدث بثقة زائفة تميز الرجال المرتعبين. وضع السماعة مكانها وقد ابيضت كفاه قلقًا. قال للمفتش:

- لا لوم عليك أيها المفتش، فلو حدث شيء للطفل؛ فالذنب سيكون ذنبي أنا. كان عليَّ أن أوجِّه كل قوتك لحماية الملجأ وأنتظر التعزيزات كي تتولي تفتيش الجزيرة.

التقط معطفه من على المشجب ووقف ينظر إلى الجمع واحدًا تلو الآخر: كيرك وماركوس وضابط البحرية، وجرانت وبيتس، ثم عاد بنظره مجدَّدًا إلى كيرك.

- لقد سمعتم جميعًا ما حدثَ أيها السادة. واحد آخر.. طفل مفقود منذ الساعة الحادية عشرة.. غالبًا يمازحهم، وسيعاود الظهور فورًا.

صدح أخيرًا صوت عربات ضخمة مُعلنة وصول التعزيزات إلى الميدان. تنهد كاميرون مُضيفًا:

- حمدا لله، وصلت التعزيزات. وعدوني بألف رجل مع كلابهم وعرباتهم ومروحياتهم.. لقد عشت في بالا أغلب سنين عمري، عائلتي تقطن تلك الجزيرة منذ عشرين جيلًا. لطالما حسبتها جزيرة دافئة.. وطن آمن. والآن.. لا أعرف بمَ أصف الوضع.

اعتمر كاميرون قبعته مُرتجف اليدين، تمامًا كارتجاف يدي بيتس.

- كنت أظن الشيطان ذكر.. لكن اتضح لي أنه امرأة.

الفصل الحادي عشر

أغلب أفراد السرَّية (ب) كانوا مستمتعين بوقتهم متحمسين لمهتهم.

كان الضابط المساعد قد أبلغ العقيد منذ أسبوع أنه ورجاله سيكونون أفضل من في لوائهم.

الملازم فريسبي دائم التفاخر بذلك، حتى وسط كل تلك الفوضى.

- لا يوجد أسوأ من تجمُّع لجنود وقت السِّلم.

وصلت السرية «ب» إلى بالا وسط حفاوة وتغطية إعلامية عظيمة، مما أسعدهم كثيرًا. وصل الترحيب بهم إلى منزلة الترحيب بجيش التحرير. كان أغلبهم من الرجال المسؤولين الذين يعرفون حدود مهامهم وخطورتها.

في مكان ما من الجزيرة، هناك امرأة مجنونة طليقة، عليهم عبء اكتشاف مخبئها.

كانوا يمتلكون أفضل الضباط، وأفضل المُعدَّات، وأفضل حماس في الجيش البريطاني كله.

راحوا يمشطون الجزيرة، تلالًا ووديانًا، بينما تحلِّق فوق رؤوسهم المروحيات.

راح الجنود يتحادثون عبر اللاسلكي، يتبادلون المزاح والسجائر والمعلومات عن المكان. فراحت أصواتهم تصدح كأصوات الببغاوات.

شرع الملازم على متن المروحية في تَفَحُّص الجزيرة، وأمامه تبدَّى مبنى الملجأ، ومن خلفه التلال الوعرة. كان المنظر محبَّبًا، لكن الجندي هاتشنسون لم يكن يرى شيئًا مُحبَّبا إلا النساء.

قال الملازم عبر اللاسلكي:

- جماعة الكلب الجوال، أين أنتم؟ أتوقع أن تكونوا وصلتم عند التلال. رد فورا أيها الكلب الجوال.

قام الجندي سميث واقفًا، والهواء العاصف يدفعه، فكانت المروحية تقترب لكنه لم يلحظها.

- الكلب الجوال يجيب يا سيدي. نحن عند قاع الجرف يا سيدي. يبدو خطِرًا، ولا نجد سبيلًا لصعوده. أظن أن علينا إيجاد طريقٍ أسهل عبر المستنقع.

- لا تفعل شيئًا من هذا أيها المجند سميث. كل الفِرق تسلك طريقها إلى الأعلى، وعليك تَذَكُّر أن الغرض من العملية أن نظل على خطٍّ واحدٍ.

توقف الملازم دراسًا المنطقة من أعلى، ثم أضاف:

- أجل، أستطيع رؤيتك الآن. انظر يمينًا.. أترى قمة الصخرة الشبيهة برأس إنسان؟

- أجل يا سيدي.. لكنني لا زلت لا أظن أن...

- لا تظن شيئًا يا سميث.. تسلَّق.

كان الملازم فريسبي يتبع تعليمات الشرطة حين جمع الجنديين هاتشنسون وسميث في مكانٍ واحدٍ، وكان هذا خطأ جسيمًا.

- من مكاني هنا أرى ما خلف القمة، هناك أخدود سهل يقود إلى قمة التل. أريدكما أنت وزميلك هناك خلال ساعة.. هيَّا!

انقطع الاتصال، وحلَّقت المروحية مبتعدة لتشجيع الفرق الأخرى.

ألقى سميث وهاتشنسون لفافتي التبغ، وسارا عبر الأحراش نحو قاع الجرف. قال هاتشنسون:

- يبدو أن ثمة شيئًا غير مقبول في كل هذا. مئات الرجال يصطادون امرأة واحدة؟

- لا تكن سخيفًا يا هاتش. ما نسعى خلفه ليس بامرأة.. تذكَّر صورها والمذابح التي قامت بها. تذكَّر أن تلك المجنونة تملك قوة رجلين مثلنا. فقط ادع الله ألا نجدها نحن. تلك مهمة الشرطة وما كان لنا التورط فيها ولو كانوا يودون أن تقوم قوات الجيش بهذه المهمة، على الأقل لسلَّحونا. قالوا لنا: لا بنادق يا شباب، أنتم هنا لإلقاء القبض على امرأة لا لخوض حرب.

أمامهما رأيا شخصين يثبان جريا كالقرود، قال هاتشنسون:

- انظر إلى الغبيين. لا بُدَّ وأنهما العرِّيف جونز وويجي بينيت. سيقف قلبيهما لو استمرا في الجري بهذا الشكل.

صدح صوت الملازم المُشجع من اللاسلكي:

- ممتاز يا كلب الصيد، لقد سجلت رقمًا قياسيًّا. لا ترفع عينيك عن الكهوف في طريقك لأسفل، غالبًا تختبئ المرأة في أحد الكهوف السفلية.

- أحسنت أيها الكلب الملاكم.. شارفت على الوصول إلى القمة. ستشارك في الفريق الأوليمبي يومًا ما.

- ماذا أيها الكلب الجوال؟!

سمعا المروحية تدور عائدة إليهما، وقد زال كل المَرح عن صوت الملازم فريسبي.

- ماذا تفعلان هنا أيها الكلب الجوال؟ تحرك وألحِق بالباقين بسرعة، أتسمعني؟

- أسمعك بقوة ووضوح يا سيدي. أنا فقط توقفت لألبِّي نداء الطبيعة.

وكي يثبت سميث زعمه، استدار وبدأ يبول عند السفح.

- سأكون عند القمة في لمح البصر يا سيدي.

- من المستحسن أن تفعل، وإلا جئتك بنفسي.

أخذ اللاسلكي من الملازم شخص ذي صوتٍ حادٍّ وهتف:

- أنا أعرفك جيدًا أيها المجند سميث، وأعرف أيضًا يا هاتشنسون، وأنتما لا تعجباني مطلقًا. سوف ألتذّ بعقابكما. إلهي، ألا تدركان خطورة الموقف؟ يجب علينا أن نجد المرأة، فهي قاتلة مجنونة وعلى الأرجح قد اختطفت طفلًا. ربما كانت تقتله بينما تتلكآن هنا. هيَّا تَسلَّقا!

ابتسم سميث هاتفًا:

- سنفعل كل ما في جهدنا البشري يا سيدي.

لكن هاتشنسون كان قد بدأ بالفعل في التسلق.

عبث سميث بأزرار اللاسلكي قائلًا:

- لقد أسكتّه مؤقتًا. لعن الله من اخترع الترانزستور، لو كان راديو ذا صمامات لكنت كسرتها وبدا الأمر عفويًّا، وارتحنا من مضايقاتهم.

ثم هز كتفيه ولحق بزميله إلى أعلى.

أمضيا وقتًا طويلًا في الطريق، حتى إذا وصلا، وجدا الغروب قد حل، وبدأ الضباب في الارتفاع من البحر. لم يريا أي أثرٍ للمروحيات منذ نصف ساعة، ولم يلقيا كذلك أيًّا من الفرق البحثية الأخرى.

كان الجو حارًا طيلة رحلتيهما، حتى غابت الشمس، فشعرا ببرودة مباغتة. أمامهم كان الجبل ممتدًا إلى ما لا نهاية.

قال سميث الذي قضى عمره وسط أماكن مأهولة مزدحمة:

- لا يبدو منظرًا مطمئنًا يا هاتش. أعلم أننا اثنان، لكني أدعو الله أن لا نلقى المرأة. لو أن الرفاق انتظرونا! لا مزاح هناك، لن نتعمق في الجبل أكثر وسط هذا الظلام، وليس معنا سوى مصباح. كان عليهم تزويدنا بحبال ومعدات تسلُّق.

نظر هاتشنسون إلى ساعته وقال:

- علينا المضي قدمًا. موعد لقائنا بباقي الفِرَق عند سور الملجأ في السادسة والنصف صباحًا. لن ينتظرنا أحدٌ لو تأخرنا.. سنضطر للسير ساعتها حتى المعسكر.

فتح خريطته ونظر فيها مُردفًا:

- يبدو أن الملجأ في هذا الاتجاه، لكننا لن نصل في موعدنا مهما حاوَلْنَا. أفضل ما نفعل هو أن ننزل الجبل من جهة اليسار فنقطع طريق سيارات قواتنا في طريق العودة. سيعاقبنا الكابتن، لكن حين يرانا، ضع ذراعك حول كتفي واقفز متظاهرًا بأنك سقطت وأُصِبت.

أعادت تلك التمثيلية روحَ المرح لسميث فهتف ضاحكًا:

- أفسحوا الطريق للبطل المصاب، ناوله يد المساعدة سريعًا أيها العريف! لنكمل طريقنا يا هاتش قبل أن يقطعه علينا الضباب. تذكَّر أن ثمة فنارًا قُرب الطريق، ولو زاد الضباب سيطلقون الأنوار.

نزلا سريعًا من جانب التل، لكن ارتفاع الضباب كان أسرع، وقد زاد الظلام مهمتهما صعوبة حتى راحا يتخبطان وقد ضاع إحساسهم بالاتجاهات، وما عاد يرشدهم سوى ضوء الفنار، الذي كان عبارة عن طَلقاتٍ من مسدس إشارة يطلقونها كل خمس دقائق.

تردد صدى الطلقات بين صخور الجبال، فلم يستطيعوا معرفة اتجاه مصدر الصوت مطلقًا.

تعثر هاتش في كومة من الأعشاب الجافة قائلًا:

- اللعنة يا سميث! الأمر ليس مزاحًا! الظلام يزداد كل دقيقة. ألقِ نظرة على البوصلة فلم أعد أعرف الطريق في أي اتجاه.

- أي بوصلة؟ لقد أعطيتها لك حين توقفنا للتدخين.

- أنت محق.. يبدو أنني قد نسيتها حين باغتنا فريسبي بمكالمته.

- علينا أن نرتكن إلى حظنا إذًا. هل تسمع أي صوت يقترب منا؟ صوت من أعلى؟

- أسمع وأشم أيضًا!

كان يسمع صوت حصى يتساقط، وشم رائحة ملحية قوية يحملها الضباب من أعلى. صاح هاتشنسون:

- المرأة مُسلحة يا سميث! لا نضمن أن نجدها خلفنا بغتة. لننزل أسرع ولنبقَ سويًّا.

- كلا، انتظر..

لم يكن سميث بطلًا، لكنه لم يكن كذلك جبانًا كرفيقه. أردف:

- أعتقد أنني أستطيع تمييز هذه الرائحة..

وسمعا صوت حيوان يصرخ، وشعرا بالكائن ذي القرنين يجري نازلًا المنحدر من جوارهما.

- مجرد ماعز يا هاتش! كان أبي يحتفظ باثنين في باحة الدار الخلفية حين كنا صغارًا. ذاك ماعز حظٍ كذلك، فقد سمعت أن ماعز الجبل يسلك طريقًا مُحددًا عبر الجبال نحو مشاربِه، وما علينا إلا أن نتبع خطاه حتى الماء، مما سيقودنا بدوره إلى الطريق الساحلي.

- حسنًا يا سميث، لكن دعنا نبق قريبين من بعضنا البعض.

كان الطريق منحدرًا بشدة، حتى إنهما كانا يقطعان بعض المسافة حبوًا على ركبهما وسط الضباب الذي يزداد كل ثانية.

وقف هاتشنسون مكانه مجددًا وراح ينظر حوله في ريبة، وكأن كل حجر أو كتلة ضباب بشريًّا مُهدِّدا، ربما يهاجمهم في أي لحظة.

- أين الماء المزعوم يا سميث؟! نحن نسير قرابة العشر دقائق على أرض مُسطحة. لا أسمع خريرَ ماءٍ.

- ولا أنا، لكن لا بُدّ وأن الطريق في مكانٍ ما أمامنا.. لا بُدّ.. هيَّا يا هاتش، فلا يمكن أن نكون بعيدين عنه.

- أتمنى أن تكون مُحقًّا يا صاحبي..

لم يعد ثمة إحساس بالجاذبية يحركهم نحو الانحدار لأسفل، فعادا يتخبطان على الأرض المُسطحة الزلقة. بين الفينة والفينة، يسقط أحدهما أرضًا يشهق ويعُب الهواء.

صعد سميث على صخرة كبيرة وظلل عينيه بكفه صائحًا:

- هاتش.. أين أنت؟

كان متأكدًا من أن صديقه كان قريبًا منذ لحظات، لكنه الآن لا يرى أي أثرٍ له.

- رد عليَّ.. دعني أعرف مكانك.. لا أرى أي شيءٍ لعين.

جاء صوت هاتش كنحيب:

- أنا هنا يا سميث.. بالأسفل. عد سريعًا وهات الكشاف. لقد سقطت وغاصت ذراعاي في الطحالب اللعينة. لقد أمسكتُ شيئًا.. أعتقد أنه...

- أنا قادم يا هاتش.

عدى سميث مُتعثرًا عبر الأخاديد إلى حيث سمع صوت صديقه، ثم جثا على رُكبتيه. كان يسمع هاتش يبكي بصوت مسموع.

عندما أضاء الكشاف، عرف سبب بكائه. كان ثمة وجه بشري يحدق فيهما من وسط الطحالب البُنية.

الفصل الثاني عشر

- كان هذا هو سيدني بولسون يا سادة.

لم تكن في الجزيرة مشرحةً مُعتبرة، فقط حجرة مرفقة بمستشفى كوتاج. وقفت جريس آليسون تحت الشمس وقد أغلق المفتش جرانت الباب خلفها.

تساءلت:

- لا بُدَّ وأنه قد عذِّب قبل موته؟ أليس كذلك؟

كانت السيدة آليسون، مديرة الملجأ، سيدة قصيرة مُبهجة، وكانت تدير حيوات عددٍ كبيرٍ من الأطفال ببراعة. الآن تبدو كشخص في فترة نقاهة، وفي مرحلة الشعور بأن الحياة بلا معنى.

- لقد كان سيدني طفلًا طيبًا يا سيادة الجنرال. كان مُحبًّا لأصدقائه وودودًا وبشوشًا.. ومع ذلك فقد حدثَ له ما حدثَ.. مات بهذه الطريقة ودُفِن وسط الطحالب على بُعد ميل من الملجأ.

تركت كيرك يأخذ بيدها ويقودها عبر المستشفى إلى مكتب مدير التبرعات.

- كم عدد جروحه يا سيدي الجنرال؟ وماذا فعلنا كي نستحق تلك الكراهية؟ كيف بدأ كل هذا؟

- سيدني طُعِن واحد وثلاثين مرة يا سيدة آليسون.

كان كيرك يعرف أنها من طراز الناس الذين يحبون أن يعرفوا الحقيقة كلها. تذكر أول نظرة يلقيها على سيدني. كان الجسد الصغير قد خرج من شاحنة الجيش، وكان عاريًا تلتف الطحالب حول جسده كالأكفان. لأول وهلة رأى السلام يعم ملامحه وكأنه يغفو. لكن عندما أزاحوا الطحالب، بدت آثار طعنات بسكين رفيع كأنها دبوس، تغطي كامل جسده. يبدو أن السبب وراء تلك الطعنات هو التعذيب لا القتل المباشر. أقرَّ ماركوس والطبيب المحلي أن ثلاثة فقط من الطعنات تسببت في الوفاة.

- سيدة آليسون، قريبًا سنُلقي القبض على المرأة وسنعرف الإجابات عن كل هذا.

راح كاميرون يصب أكواب الشاي، فتناولت منه كوبًا بيد ثابتة.

شعر كيرك بشعور غريب، أن آنا هارب ليست مخلوقًا بشريًّا من الأساس.. شيطان قُدَّ من صخرٍ، وفي صخر الجبال يحتمي. قال كيرك:

- سنستشير خبيرًا في عِلم النفس الجنائي لنفهم دوافع هارب. لكن هل لي أن أسألك سؤالًا أو اثنين؟

- كما تشاء سيدي الجنرال. لكنني أعتقد أنني أخبرت المُفتش بكل ما أعرف. افتقدنا سيدني حوالي الساعة الحادية عشرة، ولم يكن لدينا أيُّ عِلمٍ بالطريقة التي غادر بها الملجأ والأراضي المُحيطة.

رشفت السيدة آليسون الشاي وهي بَعد ثابتة اليدين، قابضة على الكوب، برغم الأسى البادي على وجهها.

- أعرف هذا يا سيدتي. المفتش جرانت عرض عليَّ شهادتك. لكن سؤالي عن بعض خلفيات الأخوية. أتفهَّم جيدًا أنه من الصعب تبني الأطفال هذه الأيام وهناك قائمة انتظار لمتبني الأطفال العاديين في منازلهم الخاصة. فكيف تمكنت الأخوية من الحصول على هذا العدد من الأطفال اليتامى الأصحاء؟

قاطعه كاميرون غاضبًا:

- جنرال كيرك، لا أفهم ما يرمي إليه سؤالك. السيدة آليسون تحت ضغط عصبي وعاطفي وقد أخبرتنا شاكرة بكل ما نحتاج إلى معرفته.

لم تعبأ السيدة بمقاطعته، وهتفت:

- أود أن أجيب عن سؤال الجنرال، ولو أني أعتقد أنه يعرف الإجابة. لديك حق بالطبع جنرال كيرك، العائلات تتصارع على تبني الأطفال، وكان مستحيلًا أن نملأ منزلنا بالطريقة المعتادة.

حولت نظرها لماركوس الواقف عند الجدار البعيد وأكملت:

- كل أطفالنا طبيعيون أذكياء يا سير ماركوس، لكن لديهم خلفيات يجدها أغلب الناس مفزعة. هم أبناء مجرمين أو مرضى نفسيين، كلكم تعرفون آنا هارب. أما أبوا سيدني مولسون فقد انتحرا أمامه بقطع شرايينهم. هل أجبت سؤالك سيدي الجنرال؟

- أجل يا سيدتي.

نظر عبر النافذة للنهار المتجِّهم بالخارج، بينما رشفت المرأة رشفة أخرى من شايها. جلس كاميرون والمفتش يفحصان خريطة الأماكن التي تم تفتيشها والتي لم تُفتش بعد.

لم تتبق أماكن اختباء أكثر..

ساد صمت طويل، فكر خلاله ماركوس في بيتر هَينس الذي كان عليه أن يُدرك أسباب كوابيس ماري فالي. لم يكن السبب جنون متوارث، ولا ذكرى من أسلاف، لكن السبب شيء أبسط: أم مجنونة غارقة في عوالم السحر والعرافة، وحاولت تنمية مَلَكة الاستبصار عند طفلة صغيرة. ماذا حدث للطفلة قبل أن تُنزع من حضانة هارب؟ أيُّ عذابٍ بدني ونفسي عانت أثناء تدريبها؟ والأهم، ما هي دلالة الجروح على جثة الطفل سيدني؟

رغم كون ماركوس عالمًا يرفض الخرافات، لكنه شعر بحاجة مُلحَّة لأن يُدلي برأيٍ يفتقر إلى المنطق.

سأل كاميرون وهو يعُبّ الخمر من زجاجة جيب صغيرة:

- والآن سيدي الجنرال، ألا تُخبرنا سبب سؤالك الغريب؟ نحن نتتبع سيدة مجنونة، تحمل كراهية عظيمة لابنتها ولأخوية فان ترايلن كلها. كذلك قد اختطفت طفلًا وعذَّبته حتى الموت. كل ما علينا هو أن نجد المرأة، ثم نحصل على تفسيرات لكل شيءٍ بعدها.

كان كيرك لينزعج من طريقة الحديث تلك، لكنه كان مُتعبًا للغاية، فردَّ قائلًا:

- أنت مُحِق غالبًا، وكذلك أعتقد أن آنا هارب ليست بمفردها. لا يُعقل أن تقوم امرأة وحدها بكل هذا، بل وتبقى مختفية طيلة تلك الفترة.

ظلَّ كيرك ينظر لماركوس ناشدًا المعونة لتوضيح وجهة نظره. كل كلمة يتفوه بها تجلعه يبدو كأبله. كان يريد أن يوضح أن آنا هارب ليست الأم الوحيدة التي شعرت أن أبناءها أُنتزِعوا منها، أمهات وآباء يعتقدون أن أبناءهم صاروا أرواحًا ما كان لها أن تُولَد. رجال ونساء كوَّنوا جيشًا ضد الأخوية، يحيكون المؤامرات ويتحينون الفرص لقنص الأعضاء واحدًا تلو الآخر. كان يريد القول بأن الحرب ستستمر حتى بعد إلقاء القبض على آنا هارب، وأن أعضاء عصابتها موجودون على الجزيرة الآن، يختفون وسط جموع المشاهدين للأحداث، والذين يتوافدون يوميًّا ليلًا نهارًا.

لم تبدُ السيدة آليسون مُتابعةً لكلام الجنرال، بل ظلت مُحدقة في ماركوس طيلة الوقت. قالت:

- قُل لي يا سير ماركوس. أنت طبيب، وقد فحصت جثة الطفل. هل ترى أن الجروح عشوائية، أم أن لها نمطًا معينًا؟

- ثمة نمط ما، كما أخشى.

أجاب ماركوس وهو يكاد يرى جثة الطفل ماثلة أمام عينيه. طعنات وقطوع.. ثلاثة جروح غائرة أي منهم قد تكون سبب الوفاة. جرح على شكل خدوش متقاطعة على الجبهة، قد تكون مُحدَثة عن طريق أشواك. سأل المرأة:

- هل تظنين أن مقتل سيدني كان طقسيًّا؟

خلعت نظارتها ومسحتها في منديل، فكشفت عن عينين ذكيتين مُثقلتين بالمعاناة. قالت:

- أنا لا أظن شيئًا سير ماركوس. كل ما أشعر به هو الذُّعر. كنت دائمًا أشك في وجود قوى شرٍّ خالصة، والآن قد تأكدت من وجودها.

قال المفتش بلهجة متعقلة:

- سيدتي، سيدي الجنرال، سير ماركوس، رجاء المُحافظة على الحديث العاقل. لا يوجد شيطان بعشرة رؤوس يجوب الجبال، هناك فقط امرأة مجنونة ونحن في طريقنا لاعتقالها.

صدح صوت جهاز الاتصال الداخلي، فهرع ليرد عليه.

- معك المفتش جرانت.

ضغط زر الجهاز كي يسمع، فتصاعد صوتٌ آمر من السماعة يسأل:

- هل السيدة آليسون هنا؟ أريد السيدة آليسون، كلنا نريدها.. اطلب منها أن تأتي حالًا.. فورًا.

وتعرَّف ماركوس على الصوت.. كان صوت ماري فالي.

الفصل الثالث عشر

سارت سيارة الشرطة التي تحمل كاميرون والجنرال وماركوس والسيدة آليسون عبر زحام قوات الجيش الجديدة الوافدة من لوتشيرن. بعد أن سمعوا صوت الطفلة في الاتصال، لم يعد التباطؤ محتمَلًا أبدًا بالنسبة للسيدة آليسون.

قال كيرك لها مطمئنًا:

- لا تقلقي يا سيدتي العزيزة.

لم يكن صوت ماري فالي يثير القلق أبدًا، كان صوتها واثقًا آمرًا، لا أثر لأي قلق فيه. أردف كيرك:

- أشياء فظيعة قد حدثت، لكنني أعتقد أن الخطر قد زال. الملجأ مُحاصَر، وسنجد المرأة على الفور، أليس كذلك؟

رفع السائق كفًا مُقفَّزة مشيرًا إلى البحر والمرفأ، وصفوف الرجال الذين يمسحون الساحل مستخدمين المناظير المُعظِّمة وأجاب:

- ربما سيدي الجنرال. فهم يفعلون كل ما في وسعهم، لكن الجزيرة بريِّة موحشة، حتى إن أهلها يضلون خلالها أحيانًا ولا يجدون من ضلَّ إلا ميتًا. جزيرة بائسة هي بالا. حتى إن سفينة ضخمة تحمل الذهب علقت على سواحلها، فلم يجد لها الغطاسون أثرًا.

قال كيرك للسيدة آليسون:

- رغم أنني لا يجب أن أقول هذا أمامِك، لكنني أحيانًا ما أشعر بالشفقة على تلك المرأة المجنونة الهاربة وسط كل تلك الجبال الموحشة.

كان ماركوس موافقًا على رأي كيرك، فقد كان النورديون يطلقون على الجزيرة لقب: المُخبِّئة. كذلك كان موافقًا على كون آنا تعسة، قد اتفقت قوى البشر والطبيعة ضدها. لكنه كان ضد اعتقاد كيرك بأنها تعمل ضمن مُنظمة، فقد كان واثقًا من أنها وحدها.

أفسَح السائق الطريق لسيارة ضخمة تحمل جنود المارينز، ثم قال:

- ستعرف أكثر عن طبيعة المكان لو عشت هنا لعام مثلًا. في موسم الصيد من كل عام، يخرج علينا الحاكم بخطبة عصماء عن الوطن الذي نعود إليه دَومًا، وأرى أنه يحاول أن يقنع نفسه بهذه الكلام دون جدوى. لماذا لا نصدقه؟ لأن تعداد الجزيرة قبل الحرب كان عشرين ألف نسمة، وفي آخر تعداد وصلنا إلى خمسة آلاف فقط..

أشار نحو مزرعة مهجورة على جانب الطريق، تخترق سقفها شجرة، ويتمدد اللبلاب على حوائطها. كانت خير دليل على هجر المحليين المستمر للجزيرة.

بدا أن السائق قد أحب صدى صوته، فراح يثرثر:

- في البداية، كانت حركة التنقل من وإلى الجزيرة عن طريق القوارب العادية، لكن سرعان ما بدأت شركات النقل في إنشاء عبارات تنقل السيارات. كذلك كانوا يظنون أن هذا سيشجع حركة السياحة للجزيرة ويجذب الناس للعودة إليها، لكن العكس هو ما حدث. ومن يومها وهم يخسرون المال. ظل الناس يستخدمون العبَّارات في الخروج فقط من الجزيرة على هيئة عائلات كاملة. أنا نفسي سأهجرها خاصة وقد توفيت أمي. إخوتي الثلاثة في كندا، وهي بلد مفتوح للجميع.

حدَّق كيرك في مروحية تابعة للبحرية تحلق في السماء وقال:

- سيجدون المرأة قريبًا.. الجيش والقوات البحرية وقوات المارينز، كلهم يسعون خلف امرأة واحدة. لن تستطيع الاختباء أكثر.

كان كيرك يحدث ماركوس، لكن السائق هو من تكلم قائلًا:

- تخميني أنهم لن يجدوها. أعتقد أن المرأة المسكينة قد ماتت وابتلعتها الأرض. هي دفنت الولد وسط مستنقعات سبيري ويستس، وبين المستنقعات والتلال حُفَر موحلة قد تبتلع بارجة كاملة. لن تزعجكم آنا هارب مجددًا يا سيدة آليسون، فقد ابتلعتها الأرض.

- هناك أيها السادة وجهتكم.. ملجأ إنفر هاوس.

توقفت السيارة، ورأوا أمامهم مستطيلًا من المباني محاطًا بسور حجري. خلف السور مساحة خضراء يانعة، تخالف تمامًا من حولها من جهامة.

فتح باب السيارة واحدٌ من جنود الأمن عند البوابة هاتفًا:

- لا تقلقي يا سيدتي، كل شيء تحت السيطرة. الجميع بالداخل، لكن لورد فاونلي يرفض تمامًا تواجُد أي من قوات الأمن داخل المبنى كما أخبرني الرقيب مَكّاي. هذا قرار غير حكيم.

قالت السيدة آاليسون:

- اللورد فاونلي يعرف ما يفعله جيدًا، فنحن لا نريد للأطفال أن يعرفوا شيئًا عما يحدث. نشكركم على حمايتكم، لكن وجود غرباء داخل الأسوار سيشعرهم أن شيئًا غامضًا يحدث. الآن، رجاء المعذرة، فأنا أريد الدخول فورًا لمعرفة ما خطب ماري فالي.

نزلت السيدة آليسون مهرولة تجاه أبواب المنزل. قال كاميرون ساخرًا:

- حمقى! لا يدركون أننا بدون قدرة على التصرف بحرية، لن يمكننا حمايتهم أبدًا. لمَ لا تدخلان وتحاولان إقناعهم سيدي الجرنال؟ ربما يستمعون إلى الغرباء، فهم يظنونني مجرد أبلَه عجوز.

على بُعدِ مائة ياردة تقريبًا، كانت مجموعة كبيرة من المراهقين يراقبون السور بفضول. صاح كاميرون:

- ومن هؤلاء أيضًا أيها الرقيب مَكَّاي؟ لقد أصدرت أوامري بإخلاء المنطقة المحيطة بالكامل! لم لا ينفذ أحدٌ أوامري؟! أعليَّ أن أتابع سير كل شيء بنفسي.

راح كاميرون يهُش المراهقين بعصاه مُهددًا:

- ابتعدوا من هنا أيها الصبية.. أنا رئيس شرطة الجزيرة وآمركم بإخلاء المكان.

تبع كيرك وماركوس السيدة آليسون عبر البوابة، وقال الأول وهو يقرأ من دليل محلّي مطبوع:

- يا له من مكانٍ بائسٍ ذي تاريخ أكثر بؤسًا يا ماركوس.

كان إنفر هاوس قلعة نورمانية في الماضي، وقبل ذلك كان حصنًا للفايكينج، وكانوا يعبدون فيه ووتان، ويقذفون من فوق التلال المبشرين المسيحيين. ثم اختلط السلت والفايكنج منتجين أجيالًا مختلطة من الأحفاد. ومرت القرون ما بين حروب وغزوات، خلفت حول المكان آثار لم يُزلها الزمن.

لم يعانِ فقط الأسكتلنديون هنا، بل عانى الغزاة البرتغال كثيرًا، وأخيرًا تم تجديد المكان في العصر الفيكتوري، وزُيِّن بالتماثيل والأبراج المزخرفة. وفي العصرِ الحديث دارت نوايا عن تحويل المكان لفندق، لكن المستثمرين عانوا وقتها من ركودٍ كبيرٍ، وظلّ المبنى في مكانه وحيدًا تهدمه الريح وأملاح البحر، حتى جاءت أخوية فان ترايلِن منذ سبعِ سنوات وبثت فيه الحياة.

نظر ماركوس للدهانات الراقية الحديثة وحمامات السباحة وملاعب الأطفال الفاخرة وقال:

- لقد أنفقوا عليه كثيرًا يا كيرك!

لكن الأخوية فقدت عشرة من أعضائها، والباقي مُهدَّد بالموت. وقتها ما مصير الأطفال؟ هل سيُوزَّعون على المنازل الخاصة والمؤسسات ويُترك إنفر هاوس وحيدًا مجددًا؟

صدحت صيحات الأطفال:

- عمتي آليسون! ها قد جئتِ أخيرًا! كنا في انتظارك.

هرع الأطفال نحو السيدة، ومن خلفهم بدا اللورد فاونلي، وسيدة أخرى رمادية الشعر لم يتعرف عليها ماركوس وكيرك. ما أذهل الرجلان هو أن الأطفال كانوا مبتهجين ضاحكين.

أمسكت ماري فالي كفَّ السيدة آليسون، وأمسكت طفلة أخرى بالكف الثانية. قالت ماري:

- تعالي معنا يا عمتي. كنا نعد حفل الليلة ونوَدُّ أن تري المجسم الذي صنعناه.

- أود فعلًا أن أراه.. لكن الحفل لن يقام الليلة كما أخشى يا حبيبتيّ. سنؤجله بضعة أيام.

نظرت السيدة آليسون نحو اللورد فاونلي طالبةً المعونة، فهز رأسه باسمًا وقال:

- لم نؤجله يا جريس، سنقيم حفلنا في موعده المعتاد، وسيكون أفضل حفلًا أقمناه. أليس كذلك يا أبنائي؟

لمعت عيناه بالحماسة وهو يكلم الأطفال حوله.

- أجل عمي مايكل! سيجلب الأولاد الأخشاب من عند الشاطئ لإشعال نيران الحفل، وعليكِ أن تأتي معنا يا عمة!

التف الأطفال حولهما يتقافزون صاخبين، وهم يجذبون ملابسها في مرح. قال اللورد فاونلي بصوت آمر مُفاجئ:

- اذهبي معهم يا جريس. بينما كنتِ بالخارج، تحدثنا أنا ولورا وإريرك بيتس، وقررنا أن نقيم الحفل حتى لو لم يَزُل الخطر تمامًا. كانت هيلين فان ترايلِن لتفضل أن نحتفل ونحيا بشكل طبيعي، ونحن دومًا نطيع مشيئتها، أليس كذلك يا جريس؟

راقب اللورد السيدة آليسون تسير مع الأطفال إلى داخل المبنى، ثم التفت مادًّا يده نحو الضيفين.

- جنرال كيرك، سير ماركوس لَفين.. أهلًا بكما في إنفر هاوس. أقدِّم لكما صديقتي لورا روز، طبيبتنا المقيمة.

خطت الطبيبة أمامًا وقالت:

- شرفٌ كبيرٌ لي مقابلتكما.

على وجهها كان نفس الذهول المُميِّز للسيدة آليسون، لكن بلا أثر للخوف أو اليأس، وكأنها قضت حياتها في جهدٍ عقلي مستمرٍ لاستكشاف الحقائق. أردفت:

- لقد استمتعت كثيرًا بقراءة ورقتك البحثية عن فيرس إينترين ١٥٦ يا سير ماركوس.

- شكرًا جزيلًا!

صافحها ماركوس، وكانت قبضتها قوية دافئة، إلا أنه شعرَ بطعنة برودة حين نظر إلى عينيها. الطفل سيدني مولسون قد تعَّذب حتى الموت، ستة من زملائها ماتوا في انفجار، امرأة مجنونة فارة تهدَّد حيواتهم.. ومع كل ذلك، فالرجل والمرأة أمامه يضحكان ويبتسمان كأن شيئًا لم يحدث.

لاحظ فاونلي نظرات ماركوس لهما فقال:

- أتظننا قساة يا سير ماركوس؟ أتظن أن علينا الانتحاب حزنًا، والانعزال خوفًا؟

نظر اللورد عبر الملاعب، ولم يكن ثمة أطفال على مقربة، لكن صوت غناء أطفال الحضانة يصلهم بوضوح.

- لقد حذرتنا يا سيدي الجرنال، قلت إنَّ قوَى الشر تعمل ضدنا وقد كنت مُحقًّا. لكننا لا نخاف، نحن متحصنون كما ترى ببَركة الإيمان.

ارتجف خده الأيمن إذ ابتسم، رأى ماركوس في وجهه شخصيتين مختلفتين تمامًا: رأى رجلًا مسنًا مكسورًا، ورأى الرجل الذي بنى إمبراطوريته من الصفر.

- مخلوق واحد.. امرأة واحدة مختلة تهددنا، لكننا لا نخافها أيها السادة. الأخوية ليست كيانًا دينيًّا، لكننا نؤمن بالبعث والخلود. علينا أن نبحث عن الإيمان حتى لا نفقد عقولنا.

كانت الكلمات تَجر بعضها، كدقائق تناسب من وقتٍ محدودٍ. أردف:

- أصدقاؤنا لم يموتوا، هم فقط غادورا صحبتنا إلى مكان آخر.. عبروا من حجرة إلى أخرى. أنت مُسن مثلي يا جنرال كيرك، وأعرف أنك تؤمن بما أؤمن به. من المستحيل أن يهنأ المرء بفكرة أن تفنى الروح بزوال الجسد.

وضعت السيدة الطويلة كفها على ذراع اللورد هاتفة:

- كفاك يا مايكل. أنت متعَبٌ ولا تعرف بم تخرِّف. اذهب ونَم لساعة.. هذا أمرٌ.

كانت تتكلم وكأنها تخاطب طفلًا. أومأ فاونلي وسار مبتعدًا. أردفت:

- اعذره سيدي الجنرال. لست طبيبة نفسية، لكنني أعتقد أن صديقي يعاني من «فرط التعويض». عقله مهزوز من جرَّاء ما حدث، وجزءٌ من كيانه يرفض التصديق.

بدأت نسمات باردة في الهبوب، فأزاحت لورا روز خصلة رمادية من أمام وجهها وأضافت:

- أغلبنا يعاني مما يعانيه اللورد، حتى إيريك بيتس. الرجل يحاول الحفاظ على عقله بالانغماس في الأنشطة مع الأطفال. هذا أفضل ما يمكن فعله حقيقةً.

علت أصوات ضحكات الأطفال عبر نسمات الهواء، قال كيرك:

- ربما يا دكتورة روز، لكن لدي ما أطلبه منك. رئيس الشرطة أرسلنا هنا في مهمة. واضح أنهم سيلقون القبض على آنا هارب قريبًا، ربما خلال الساعات القادمة. لكن نرى من الحكمة أن تسمحوا بالتواجد الأمني داخل الأسوار. سيرتدون ثيابًا مدنية عادية ويمكن أن تخبروا الأطفال أنهم عُمَّال للصيانة أو أي شيء.

- لا داعي لذلك يا جنرال كيرك. الأطفال في مجموعات لا تفترق ولا ننزل أعيننا عنهم.

ابتسمت في حرجٍ وهي تفتح حقيبة يدها أمام كيرك، وتريه مسدسًا أوتوماتيكيا.

- لم أستخدم مسدسًا من قبل، لكنهم علموني. مع جريس آليسون مسدسًا مثله، ونحن لا نخاف تلك المرأة.

فكر كيرك في أن فاونلي ليس الوحيد الذي يعاني الصدمة، وفكرة أن تُسلح تلكما المرأتان نفسيهما بالمسدسات بدت غير مريحة بالنسبة له. بالتأكيد شيء شيطاني يحاك ضد الأخوية، لكن الدكتورة روز تبدو عقلانية بشكل مقلق.

لكنها مُحقة في شيءٍ واحدٍ. ربما تعمل آنا هارب وحدها، وقد أثرت عليه سنين عمله في الاستخبارات وجعلته يفكر دومًا في المؤسسات الإجرامية، لا الجرائم الفردية. ربما كانت الشرطة مُحقَّة في زعمها أن الحوادث الأولى كانت محض صدفة، بلا علاقة بينها. لا شيءَ يدعم نظريته بشأن المنظمة خلف آنا هارب. آنا مجرمة منفردة مشؤمة. امرأة ذات خبرة في التخريب، مجرمة معروفة، مخبولة تزعم أن ابنتها كيان شرير يجب أن يُدمَّر. كذلك كانت مُمارِسة للسحر الأسود، وقد كان مقتل سيدني طقسيًّا. هل ثمة تاريخ لها مع سحر الفودو وما شابه؟

قاطع صوت لورا خواطر كيرك:

- أوَدُّ أن آخذكما في جولة في المكان سيدي الجنرال.

أومأ كيرك وتبعها هو وماركوس عبر الفناء. كان الجو صحوًا والطيور البحرية تحلِّق فوقهم. أحكم كيرك المعطف حول جسده، فقَد شعرَ ببوادر برودة.

- لا تُخبرا الأطفال بأيٍّ مما يحدث لو سمحتما. فهم يظنون سيدني في إجازة خارج الملجأ، ولا يعرفون شيئًا بشأن التفجير.

أشارت الطبيبة عبر الفناء إلى مجموعة أولاد يكوِّمون الأخشاب لإشعال النيران يشرف عليهما إيريك بيتس ورجل آخر. كان صبيًا أسود الشعر يتزعم المجموعة، ويلقي الأوامر للكبار قبل الصغار.

- كلا يا عمي إيريك، لا تضعها بالعرض، يجب أن نضع الأخشاب مائلة فوق بعضها حتى لا تخمد النيران سريعًا.

ماري فالي طفلة غريبة للغاية، يذكر كيرك كيف جذبت يد السيدة آليسون لتحملها على مساعدة الرجل. قال هَينس إنها تخاف النيران في أية صورة، لكن ما يراه أمامه يؤكد أن ماري متحمسة تمامًا للحفل وطقوسه النارية.

علم نفس الأطفال خارج منطقة ثقافته، إلى جانب أن عِلم نفس آنا هارب هو ما يهم الآن.

ارتجف كيرك بردًا وهو ينظر نحو البحر ليرى عند الأفق حزامًا من السحاب، بدا كنُذُرٍ تتنظر الوقوع.

الفصل الرابع عشر

- أرجوك عُد سريعًا يا مارك. كنت أظن أن التغيير سيفيدك، لكنني وحيدة تمامًا بدونك. إلى اللقاء يا حبيبي.

أغلقت تانيا لَفين سماعة الهاتف، وسارت نحو نافذة غرفتها. اليوم هو السبت، وأغلب الناس تحمل دُمى ومجسمات جاي فَوكس الضخمة وتُعد النيران لحرقها في المساء في باحة المنزل المجاور، كما جرت العادة القديمة. والعديد منهم يحضِّرون الألعاب النارية كذلك ويوجهونها إلى السماء من فوق أسطح البنايات.

شيء غريب.. لا شيء مما أخبرَها به ماركوس، أو مما ذُكِرَ في الصحف يعني أي شيء! كيف تكون امرأة واحدة مسؤولة عن كل تلك الفظائع؟ امرأة واحدة تروِّع جزيرة بأكملها ويستدعي إلقاء القبض عليها كل تلك القوات؟!

نظرت تانيا إلى انعكاس وجهها في المرآة وقالت بالروسية:

- شيء عجيب للغاية! لا يمكن أن تكون آنا هارب وحدها، لا بُدَّ وأن هناك منظمة خلفها تخطط لتدمير الأخوية. لكن ما السبب؟

تانيا تدربت في الاستخبارات وتفكر بنفس طريقة كيرك، التي تعزي الأعمال الإجرامية الكُبرى إلى تنفيذ جماعي منظَّم.

- حتى نظريات كيرك سخيفة.. أن يجتمع عددٌ من الآباء الخطرين للانتقام من أخوية ظنًا منهم أنهم هم من أخذوا أطفالهم منهم. لو افترضنا أن الهدف من وراء الجرائم منفعة مادية، فهذا هدف جيد، لكنه بعد يفتقر الأدلة.. فمن عساهم يكونون أولئك الورثة اليائسون الذي يستأجرون قاتلًا محترفًا ليرثوا؟! لو أن هناك ورثة لحقَّقت معهم الشرطة منذ زمن.. لا ورثة إذًا.

قد تكون هناك نظرية معقولة، لو افترضنا أن الدوافع من وراء الجرائم دوافع مُستقبلية..

أشعلت تانيا سيجارة، مُحاكية رئيسها السابق جورج بيتروف، وأردفت:

- احلق صوف الخروف علنًا، حتى لا تضل الماعز.. قولٌ حكيم. ربما يعيد رجل مسن ثري النظر في الانضمام للأخوية لو عرف مسبقًا مصير مَن ينضم إليها.. لا لا.. هذه أيضًا نظرية عقيمة.

لكن الجرائم حقيقة، وأكد تحليل الكومبيوتر نظرية القتل المخطط له. سواء كانت آنا هارب تعمل وحدها أو ضمن منظمة، فالهدف هو الخلاص من أخوية فان ترايلِن.

كيف كان جورج بيتروف ليفكر في هذه القضية؟ كانت تذكره والإعجاب يملأ قسماتها. أُحيل بيتروف إلى المعاش منذ زمنٍ، وهو يعيش الآن وسط أواني زهوره وحديقته في كريميا. كانت له مقولة شهيرة اقتبسها من شيرلوك هولمز: ضَع في اعتبارك كل شيء، واستثنِ كل ما لم يثبت حقيقته. ما يتبقى سيكون الحل مهما كان مُستبعدًا.

حسنًا، الأحداث التي حدثت في بالا حقيقة.. السيارة التي وجدوها قد أجَّرَتْها آنا هارب فعلًا.. العبَّارة انفجرت.. عذِّب الطفل المسكين حتى الموت. لكن ماذا عن الوفيات القديمة؟ وفاة السيدة هيلين فان ترايلن، والكولونيل والباقين؟ استبعدت الشرطة احتمالية أن يكون أيٌّ منهم قتلًا لا وفاة طبيعية.. هل كان جورج بيتروف ليستبعد هذا الاحتمال؟ كلا.. كان ينظر في أمر كل الأحداث التي حدثت منذ دخول ماري فالي المستشفى وإيقاع بيتر هَينس الكشف عليها.

دقت ساعة الشارع، ففتحت تانيا الراديو على البرنامج الإخباري. كان المُذيع مصابًا بنزلة بردٍ، وصار صوته غليظًا مشروخًا.

راحت تسمع توالي الأخبار عبر صوت عطس وكحة المذيع واعتذاراته.. وأخيرًا:

- لا أثرَ حتى الآن للمدعوة آنا هارب، والمتهمة بقتل السيد بيتر هَينس في مستشفى القديس بيده في غرب لندن الأسبوع الماضي. قال متحدثٌ باسم الشرطة إن المرأة في جزيرة بالا، وتدور الشكوك حول وفاتها. كما طالبت الجماهير باستقالة الوزير إيفور مَد، بينما تجوب القوات جزيرة بالا بحثًا عن السيدة هارب. هذا وتتعرَّض الجزيرة لموجة من التخريبات يقوم بها بعض الفضوليين ممن وصلوا للجزيرة بغرض متابعة القضية عن كثب، على إثر ذلك، تم حظر ركوب العبَّارة واقتصرت رحلاتها على نقل السكان المحليين فقط.

أغلقت تانيا الراديو. يوجد قُرابة الألف رجل مزودين بالمعدات والكلاب، كلهم يبحث عن آنا هارب، فأين عساها تختبئ وهي لا تعرف أحدًا حتى في الجزيرة؟ إما أن أحدهم خبأها، أو أنها ماتت كما قال ماركوس.

نعود للبداية.. نعود لهَينس. لمدة ثلاث سنوات، لم تحاول آنا هارب الاقتراب من طفلتها، ومنذ ظَهر هَينس على الساحة، ظهرت آنا ومشاكلها.

في البداية كل المعلومات كانت مُستقاةً من هَينس. هو من أخبرنا حكاية السائق الذي زعم أن ماري طعنته في خده بسيجارة مشتعلة وتسبب ذلك في الحادث الذي أودى بحياته لاحقًا.

حدقت تانيا في طرف سيجارتها المتوهج..

هَينس كان قلقًا بخصوص حالة ماري العقلية، إنه قد خاطر بحقنها بسلالة خطرة كي تظل في المستشفى تحت المراقبة، وخاطر كذلك بجلب المجنونة آنا هارب لرؤية ابنتها، ودفع ثمن تلك المخاطرة حياته.

بحسب الشهود، فقد كانت آنا هارب طبيعية عند وصولها المستشفى، فماذا أحدث التغيير المفاجئ؟ ماذا حدثَ أو قيل واستفز الجنون الكامن فيها فطعنت جبين هَينس، وسحبت الطفلة من شعرها لتلقيها في بئر السلم، ثم ضربت ماركوس في رأسه هاتفة: الروح التي لم يكن لها أن تُولَد؟

التفتت تانيا للكتب الموضوعة على المنضدة جوار فراشها. كانت امرأة عقلانية، لكن منذ أن جاءت مع سير ماركوس لندن وقد شغفتها كتب السحر حبًّا. كانت الكتب تحمل عناوين:

طائفة المذؤوبين، كتاب الموتى التِّبتي، الشيطان في غرب أوروبا.

آنا هارب كانت تَمارس العرافة وتدعي أن لديها قدرات استبصارية، وهذه حقيقة، وكانت تحاول إقحام تلك الأمور في عقل ماري، وهذه أيضًا حقيقة مُثبتة في سجلات الشئون الاجتماعية حين أبعدوا الطفلة عن أمها. هل يكون هذا دافعًا كافيًا لها؟ خَشيت أن يكون هَينس قد حفر عميقًا في عقل ماري وكشف ما لا تريد له أن يُكشف؟

القت تانيا السيجارة التي كانت قد احترقت حتى وصلت أناملها. أصحاب العقائد السرية والممارسات الغريبة لديهم طريقة يعرفون بها بعضهم البعض. طريقة مُصافحة معينة، كلماتٌ مُختارة.. إلخ.

أيكون الأمر كذلك؟

جلبت الكتاب الذي اشترته صباحًا بعنوان: ميراثُ بالا. الكتاب يهتم بتسجيل المناظر الطبيعية للجزيرة والتاريخ الطبيعي، لكنَّ فصلًا منه يتحدث عن موروث شعبي يمتد لما قبل دخول المسيحية، أيام عبادة أودين وثور وفرَير. يقول الكاتب إن تلك الآلهة ظلت تعبد سرًّا في الجزيرة حتى مطلع القرن الحالي. آنا هارب كانت مهتمة بالسحر. أيعقل أن تكون قد وصلت للجزيرة وحدها، لكنها اختبأت عند أتباع ديانتها السرية؟

تقمصت تانيا شخصية بيتروف وصاحت محنقة:

- لا لا لا.. الحقائق يا تانيا.. الحقائق. نحن لا نعتمد الخرافات هنا.. إما أن تمنحيني حقيقة واحدة أو تصمتي.

أيًّا كان ما درَّبها عليه بيتروف، فدائمًا ما تختلط الحقائق بالاستنتاجات في ذهنها.

سمع ماركوس تسجيلات ماري فالي تحت تأثير العقاقير، ولا بُدَّ وأن هَينس قد كتب تقريرًا كذلك ذكرَ فيه وصفًا كاملًا للحالة، وغالبًا سيكون قد أرفق فيه انطباعه بعد مقابلته لآنا هارب أول مرة. ألم تذكر المرأة أمر انضمامها لجماعات تمارس السحر مثلًا أمام هَينس؟ ملاحظات هَينس المكتوبة قد تفسِّر سرَّ اختفاء آنا هارب، ليس في جزيرة بالا، بل على بُعد أقل من خمسة أميال.

فتحت تانيا الخزانة مُخرجة معطفها وهمست:

- معذرةً يا بيتروف. فأنا مثلي مثل كيرك، أتبع حدسًا، وسوف يُغضبك هذا مني. لكنك لم تعُد رئيسي الآن، فلترجع لحديقتك وأزهارك.

فتحت دليل الهاتف وبحثت عن عنوان بيتر هَينس.

* * *

كانت الشقة في عقار بُني بعد الحرب مباشرة، وبالنظر إلى عدد النوافذ المُضاءة، يمكن أن نخمن أن أغلب سكانها ممن يعملون في المدينة ويعودون لبلداتهم في العطلات.

كان المكان مهملًا وكأن أحدًا لا يعبأ بمن يدخل أو يخرج، حتى إن الحارس لم يرفع رأسه عن الجريدة عندما مرت من أمامه. بالنسبة له، فالسكان مجرد أرقام وأسماء، ولا يهم شيء طالما يدفعون إيجاراتهم ولا يشتكون منه.

الشقة رقم ١٦- بيتر هَينس.

لا زال حظها الحسن يساندها، فكان الباب بلا رتاج معقد، واستطاعت أن ترى مسافة بين الباب وإطاره تسمح لها بدس القطعة البلاستيكية التي أحضرتها معها لدفع لسان المزلاج.

دلفت تانيا إلى الصالة المعتمة وأغلقت الباب خلفها بهدوء. شمت رائحة تبغ وسمعت صوت حركة.. لم تكن وحدها.

رأت في حجرة الجلوس رجلًا يجلس محنيًا، تظهر على رأسه من الخلف شرائط ربط عصابة عين.

- عدت مجددًا يا آلفي؟

قالها الرجل ونظر إلى ساعته مردفًا:

- ممتاز.. أقل من ساعة من الباب للباب، حافظ على أدائك المبهِر وسوف تصل إلى ما وصلت إليه أنا من مكانة.

ضحك ورفع كأسه إلى شفتيه، وجواره رأت تانيا طاولة مليئة بالخطابات.

- لستُ آلفي يا سيد فورست.

كانت تانيا تبغي مفاجأة الدخيل غير المُرحَّب به، لكن خاب أملها. جون فورست بالكاد تحرك. وجه مصباح المكتب نحوها وابتسم.

- أرى أنك لستِ هو يا عزيزتي حرم السير لَفين، فآلفي مراهق في السادسة عشر، حجمه صغير بالنسبة لعمره، ويعاني من حب الشباب.

رمق فورست تانيا من رأسها لأخمص قدميها، وضحك مقهقهًا كالديك الحبشي حين لمح قطعة البلاستيك في يدها.

- البساطة عنوانك! لم أصدق قَط أن حيلة البطاقة البلاستيكية قد تنفع. سيصدم زوجك الموقر السير ماركوس حين يعلم أنك تقتحمين البيوت كاللصوص.

- كيف دخلت يا سيد فورست؟

لم تكن تحب فورست، ولم تكن تكرهه مثل كيرك.

- وماذا تفعل هناك؟ ظننتك مصابًا في المستشفى في إسكوتلنده.

- كنت مصابًا يا عزيزتي، مصابًا بشدة. لكن الواجب ناداني وأرسل بي إلى هنا بينما يطارد كيرك وزوجك شبحًا في بالا. شعرت أن استثمار مواهبي سيكون هنا. كم أنا وقح.. دعيني أقدم لك مشروبًا.

قام مثاقلًا متخبطًا عبر الحجرة مُضيفًا:

- الراحل الدكتور هَينس.. معذرة.. السيد هَينس، مجرد حاصل على شهادة في الطب، قد ترك لنا مشروبات كافية. هل يناسبك مشروب الجِن؟ ممتاز..

فتح الزجاجة وصب منها قدرًا وفيرًا. أكمل حديثه:

- بالنسبة لسؤالك الأول، دخلت بخمسة دولارات للحارس الذي أعارني مفتاحه بكل لطف وحماس.. في صحتك.

أعطاها فورست الكأس ورفع كأسه مُردفًا:

- والآن، هل لي أن أسألك عن سبب مجيئك؟

جلست تانيا قُبالته مُجيبة:

- حدس يا سيد فورست، لا أكثر. سأحاول أن أشرح لك، لكن رجاء لا تسخر مني، فأفكاري لا زالت مشوشة.

أخبرته تانيا عن نظريتها التي توصلت لها في حجرة النوم، وانتظرت مع كل عبارة أن يبتسم أو يهز رأسه، فكل ما قالته كان غريبًا غير مُتسق.

قال أخيرًا:

- أرى أنك تفترضين انضمام آنا هارب لطائفة تمارس السحر الأسود، وهي تختبئ لديهم في بالا.

لم يبتسم فورست، بل ظل مُطرقًا يفكر، محدقًا في زجاجة الرَّم كأن سرًّا مقدَّسًا مخفيًّا فيها.

- استنتاج معقول يرقى لهلاوس كيرك، لكنه قابل للابتلاع.

- قبل أن نكمل حديثنا، هلا نزعنا الألقاب؟ إن كنا سنتعاون في حل تلك القضية.

- شكرًا يا تانيا. يبدو لي أن السيدة هارب قد ماتت أو في طريقهم للقبض عليها خلال سويعات. الجزيرة تعُج بالصحفيين، وسواء وجدوها حية أو وجدوا جثتها، فسيتصدر الخبر كل الجرائد.

ما عاد بي إلى لندن هو تفكيري في مهنة السيدة هارب وعلاقتها بالسحر، وتأثير ذلك على صحة الطفلة العقلية. لماذا لاحظ هَينس ما لم يلاحظه طبيب الملجأ الذي أقر أن الفتاة في صحة نفسية ممتازة؟! أتكمن الإجابة في أمر حدث قبل حادث الحافلة؟ من خلال تقرير هَينس، فإن آنا هارب ذهبت لترى ابنتها في الفندق قبلَ الحادث، والفتاة لم تعرفها. هل تكون تلك نصف حقيقة فقط؟ هل يمكن أن تكون ماري قد عرفت أمها لكنها خافت منها حتى إن عقلها الباطن رفض تصديق تلك المعرفة؟

شعرت تانيا بغثيان، سألت:

- ماذا يمكن أن يكون قد حدث لماري يا جون؟ ماذا فعلت المرأة بها كي...؟

- كي تزرع قدرات سحرية في عقلها؟

لم تجد تانيا ما تكمل به عبارتها، لكن جون أكملها مبتسمًا ابتسامة رمادية، مضيفًا:

- الله وحده يعلم يا تانيا. المهم أنني أرى آنا هارب قد نجحت في زراعة تلك القدرات. لكن هَينس لم يذكر قَطّ تلك الاحتمالية، فقد قرأت تقاريره جيدًا ولا يوجد بها ما يدعم نظريتنا.

مال فورست فأنَّ الكرسي تحت ثقله، ونظر إلى ورقة أمامه وقال:

- هَينس كان رجلًا عمليًّا محدود الخيال لكنه رجلٌ قَلِق كذلك. كان تشخيصة المبدئي أن ماري تعاني من فصام مبكر في أطواره الأولى، وقد أعرب عن رغبته في علاجه قبل أن يتطور. كان يعرف مخاطر إحضار آنا هارب للمستشفى، لكنها كانت مخاطر محسوبة، كونه يظن أن صدمة لقائهما قد تظهر مرض الطفلة وتسهل تشخيصه. لكنه كان مخطئًا. ما حدث أن الأم هي من تلقَّت الصدمة لا الطفلة، ولهذا السبب يطاردها جيش كامل.

سمعا طَرقات خفيفة على الباب، فقال فورست:

- معذرة، قد يكون هذا مساعدي الصغير.

سار فورست ببطءٍ نحو الباب، ثم سمعت تانيا صوت ضَحِكة ونقاشًا قصيرًا، ثم عاد فورست حاملًا مِلفًا سميكًا تحت إبِطه، وضعه على المنضدة وراح يقلب فيه هاتفًا:

- لنلقِ نظرة على الحقائق المبكرة يا تانيا. معنا امرأة مختلة تمارس السحر، وتحاول زرع قدرات سحرية في عقل ابنتها. تم انتزاع الطفلة منها وإرسالها لملجأ فان ترايلِن، وأصبحت ماري فالي الطفلة المُفضلة لدى هيلين فان ترايلِن حتى إنها كانت تأخذها لتعيش معها فترات في منزلها الخاص، وكان الطفلة بحوزة هيلين حين انتحرت. ثم جاء حادث الحافلة بعدها بعام وإيداع الطفلة المستشفى، لتثير حالتها ريبة هَينس. حاول الرجل إيصال المرأة بابنتها لمحاولة فَهم حالة الطفلة أكثر، فتنج عن هذا اللقاء مقتله ومحاولة قتل ماري فالي على يدِ والدتها التي نعتتها بكونها «روح ما كان لها أن تولد».

وجد فورست ما يبحث عنه وسط الأوراق، فجنَّبه وأزاح الملف قائلًا:

- ربما كان هَينس رَجُل علم بارد القلب يا تانيا، لكنه قام بتصريح غريب عن ماري، قال إنها تتذكر أمورًا لا يمكن أن تكون قد تعرضت لها. هذا بالضبط ما لفت نظري لتقريره قبل مجيئك.

ابتسم ابتسامة رمادية حزينة أخرى وسار نحو مُشغل التسجيلات في ركن الحجرة مُكملًا:

- وقد استنتجت ما حدث في المستشفى واستفز آنا هارب. هل أدركت المرأة أخيرًا أنها درَّبت الطفلة على العِرافة، وأن الماثلة أمامها مجرد مِسخ؟

هذا الملف الذي وصلني الآن، يحوي سيرة ذاتية قصيرة عن كل فردٍ من أفراد الأخوية، واحد منهم فقط يحتاج لإعادة النظر فيه. لكنني أوَدُّ أولًا أن تسمعي تسجيل هَينس لماري فالي تحت تأثير العقاقير.

ضغط فورست زر التشغيل.

كان صوت هَينس رفيقًا آمرًا وهو يقول:

-هل بدأتِ في الاستفاقة يا ماري؟ أريدُكِ أن تنصتي لي جيدًا يا ماري. في آخر مرة أنَمتُكِ فيها ذكرتِ لي شخصًا يُدعى فينسنت. ماذا حدث لفينسنت يا ماري؟

- توفي يا سيدي منذ وقت طويل في مدينة هارمر فلاتس، ولا أريد أن أتحدث عنه مرة أخرى (صوتُ نهنهات بكاء) أرجوك لا تجعلني أفكر في فينسنت.

- عليكِ أن تفكري فيه يا ماري فأنا أريد أن أساعدك وعليكِ أن تخبريني بكل شيء. قلتِ إنه مات، كيف؟

- احترق.. كان يصرخ.. الثيران الصغيرة تدفعه خلفًا.. تدعس جسده.. لكنه لا يزال حيًّا في النيران.

كان صوت ماري مرتجفًا مختلطًا بالنحيب حتى صار من الصعب على تانيا فهم ما تقول.

- وأين كنتِ يا ماري؟ هل رأيتِ فينسنت يموت؟

- بالطبع.. كنت هناك.. معه.. أحببتُ فينسنت لكنني قتلته كذلك لأنها كانت فكرتي.. كان علينا تدمير أوراق الحسابات قبل أن يراجعها المدققون. كانوا سيجدون دَينًا علينا للضرائب الفيدرالية يبلغ مليونًا من الدولارات. بدا الأمر بسيطًا.. بسيطًا للغاية حتى غيرت الريح اتجاهها للشمال... رجاءً دَعني أخلد للنوم.. لا أريد أن أتحدث عن نيران الجحيم مجددًا.

- يجب أن تتكلمي يا ماري، دعيني أساعدك. كيف بدأت إشعال النيران؟

- استخدمنا الكيروسين بالطبع. المكتب كان مبنيًّا من الخشب وقد احترق فورًا كالمشعل، ثم غيرت الريح اتجاهها وتشتت الثيران.

ساد الصمتُ هُنيهة، ثم قال هَينس مُشجعًا الطفلة على الحديث:

- دارت الريح نحو الشمال، أليس كذلك يا عزيزتي؟

- أرسلت النيران في أرجاء المكان، وبدأت النباتات في الاشتعال، فهربت الثيران وراحت تعدو نحونا. أستطيع رؤيتهم وسماعهم وشمهم حتى عبر كثافة الدخان. هل تذكر كيف توهجت قرونهم احمرارًا يا فينسنت؟ ثم سمعت صوت صراخ امرأة وبكاء طفل، أصوات لم أسمع في بشاعتها قَط.

ومُتّ يا فينسيت الحبيب.. حجبت الثيران عني حتى أهرب أنا. ضحيت بنفسك من أجلي. دعستك الثيران وقذفتك نحو النيران..

سمعت تانيا صوتًا غريبًا يأتي من المسجل وشعرت بألمٍ شديدٍ كونها قد غرست أظفارها في كفيها توتُّرًا. تغيَّر صوت ماري فالي إلى صوت امرأة كبيرة.

- لقد منحتني حياتك يا فينسنت، وسأحافظ عليها من أجلك. كان الأمر معقولًا داخل الشاحنة عندما ركبتها، وقد كنت آمنة تمامًا خلف بابها الحديدي السميك. ثم وصلتني الحرارة وراحت تزداد بجنون حتى راح جسدي يذوب ورأيت الباب يتوهج محمرًا.. وبدأ جسدي في الذوبان والباب يتوهج.. لماذا لم يهب الرجال لمساعدتي؟

تعالى صوت نهنهات المرأة حتى عاد صوت ماري فالي تدريجيًّا وقالت:

- أعدني إلى البيت يا سيدي، أريد العودة لرفاقي وسأكون في أمانٍ مع العمة آليسون والعم مايكل والباقين. لا تُعدني للنيران.. لا تُعدني للجحيم.

- ستعودين للبيت يا ماري قريبًا، لكن عليك استكمال القصة أولًا.. مَن هم الرجال الذين لم يهبوا لمساعدتك؟

- رجالي.. رجالنا طبعًا. فرانك وشون وجيسي، جميعهم.. لقد أنقذتني في النهاية يا جيسي لكن بعد فوات الأوان. كنت قد غطيت وجهي حين سقطت، لكن انظر ما وصلت إليه؟ انظر لصدري وقدمي وذراعي؟

- حسنًا يا ماري.. نامي الآن يا عزيزتي..

ثم ساد الصمت إلا من صوت دوران بكرة التسجيل.

أغلقت تانيا المُسجل وقالت:

- سمعت التسجيل يا جون. لم يكن ما قالته قصة أو كابوسًا أبدًا. الطفلة كانت تحكي شيئًا حدث لها بالفعل.

- ليس لها يا تانيا.. لم يحدث لها.

كان فورست يحدق في صفحة من خبر وصورة أمامه. أردف:

- حتى بضع دقائق مضَتْ، كنت متشككًا. أنا أؤمن بالقدرات الاستبصارية والإدراك فائق الحواس إلى حدٍّ ما، لكنني كنت أشُك في صدق المُدعين، وأشك في المس والاستحواذ الشيطاني.. والآن لست واثقًا من أي شيء، لقد بدأت أخاف الخوارق ولا أحب ذلك الخوف أبدًا يا تانيا.

دفع إليها بقصاصة الجرائد والصورة، ومال خلفًا في كرسيه يحملق في السقف. نظرت تانيا للصورة وقالت:

- رأيتها من قبل..

كانت صورة لهيلين فان ترايلِن باهرة الجمال. كانت ترتدي ذات القفازات التي تصل إلى كوعيها كما لاحظ ماركوس مسبقًا. يقول الخبر: مأساة أمريكية! مليونير يحترق حتى الموت ويُسحَق تحت أقدام الماشية.

أعاد فورست ملء كأسه وقال:

- غريب.. أليس كذلك؟ أكد هَينس أن ماري فالي تبدو طبيعية ظاهريًّا، وهذا فقط حتى تتأكد من أن لا أحد يراقبها، أو كانت نائمة أو مخدَّرة، وقتها فقط يبدأ ولعُها بالنيران وكوابيسها عن الاحتراق والألم والماشية المُتدافعة والرجل الذي يُدعى فينست.. فينسنت فان ترايلِن، وقد مات في مصنع لتعليب اللحوم في مدينة تدعى هارمر فلاتس في الغرب الأمريكي، وأرملته كانت تدعى هيلين، وترتدي

قفازات طويلة لتَخفي أثر الحريق. كيف وصلت القصة لماري فالي؟ لا أرتاح أبدًا لكون التفسير هو الدجل والعرافة!

- لكن بحوزتنا حقائق الآن يا جون. نحن نعرف أن أم ماري تدعي قدرات خارقة وقد حاولت تمريرها لابنتها. نعرف أن ماري كانت الطفلة المفضلة لدى هيلين فان ترايلِن، وكان في بيتها حين انتحرت. وها قد سمعت منك الحقيقة الثالثة التي تؤكد شكوكنا.

- الاستحواذ الشيطاني هو التفسير الأوحد هنا، وإلا فكيف لطفلة أن تعرف ما حدث لامرأة منذ ثلاثين عامًا؟

الفصل الخامس عشر

- تانيا، عزيزتي.. عليكِ أن تُخرجي هذه الأفكار من عقلك.

كانت تانيا قد اتصلت بماركوس، وكان هو جالسًا خلف مكتب حارس فندق بن ديريف صارخًا كي تسمعه عبر الهاتف.

كان قرار منع السياحة عن بالا متأخرًا، فقد كانت الفنادق تعج بالفضوليين والصحفيين والمتطوعين في البحث عن آنا هارب.

- تذكري أنك حاملٌ في شهرك السابع، وتقرئين كتبًا مريبة عن السحر فربما أثر هذا وذاك على تفكيرك يا حبيبتي. حاول أن تسترخي وأنا مدرك أن الاتصال بي صعب ويضع ضغطًا عليك.. تانيا.. هل تسمعينني؟

بدا له أن الخط قد انقطع، ضغط ماركوس زر الاتصال بعامل الاتصالات حانقًا وهتف:

- كنت أتحدث إلى الرقم ١٧٦٧٨٣٢ في لندن وانقطع الخط. هل يمكنك إعادة الاتصال؟.. أعرف أن كل الخطوط مشغولة، لكنني طبيب وهذا أمر عاجل.. شكرًا.. سوف أنتظر.

تراجع ماركوس جالسًا في ركن، وراح يفكر جديًّا في العودة إلى لندن لإنهاء هذا السخف.. وأي سخف! روح متوفاة تستحوذ على عقل طفلة وتحكي من خلالها خبرة مريعة حدثت منذ زمنٍ بَعيدٍ.

كيف أقحم المخبول فورست فكرة كهذه على عقل تانيا العملي؟!

بينما كان ماركوس في انتظار المكالمة، رأى مروحية تهبط وسط الميدان. كان الليل قد حلَّ، ولم تعد للمروحيات جدوى في الظلام.

حسب ما عرف من كيرك فقد انتهوا من تفتيش الجزيرة، ولم تعد احتمالات سوى أن آنا قد غادرت الجزيرة في وقتٍ سابق، ولا فرصة لكونها مختبئةً وسط بعض السكان المحليين كمان افترض فورست المخبول وتانيا. الاحتمال الثاني هو أنها ببساطة قد ماتت في المستنقع.

ظل الزحام والتدافُع داخل الفندق، وفي الخارج علا صوت درجات بخارية يركبها شباب في سترات جلدية سوداء.

لم تكن الأخوية هي من تعاني فقط هذه الأيام. فامرأة غجرية ترقد في المستشفى الآن بعد أن ضربها مجموعة بلطجية ظنًّا منهم أنها آنا هارب. كذلك امتلأت المستشفيات بضحايا أحداث الشغب الأخيرة.

رد عامل الاتصالات على ماركوس أخيرًا، فقال الطبيب:

- دقيقتان كافيتان.. شكرًا.. تانيا لدينا دقيقتين فقط.. لا أريدك وحيدة الليلة، اتصلي بالسيدة ماكدوجارت واطلبي منه المبيت معك، وسأركب أول عبَّارة وأعود إلى لندن فورًا. فقط انبذي نظرية الاستحواذ تلك، فقد قابلت ماري فالي وتحدثت مع طبيبة الملجأ. الطفلة مصدومة فقط بسبب حادث الحافلة،

والبائس هَينس قد أساء تحليل المعطيات. الطفلة طبيعية.. تانيا، سنتحدث بشأن التسجيلات حين أعود. انسِها مؤقتًا، فهناك تفسيرات عقلانية لما حدث.. حبيبتي، الطبيبة روز أخبرتني أن السيدة هيلين كانت تعتبر ماري ابنتها، وكانت السيدة مريضة للغاية، ووارد أن تكون قد حكت لماري، أو هلوست أمامها بتلك القصة المروعة، وعندما علمت ماري بانتحارها، تغذى لا وعيها على هذه القصة وهضمها وصارت جزءًا منه... تانيا.. هل تسمعينني؟!

انقطع الخط مُجددًا فأرجع ماركوس سماعة الهاتف إلى مكانها، ثم تملص من النسوة المتجمهرات الباحثات عن حجرة شاغرة، وقطع طريقه نحو الحانة حيث سيقابل كيرك.

برغم كون آنا هارب مُجرمة، إلا أنها أسدت صنيعا لتجار وأصحاب الأعمال في الجزيرة، فقد اكتظت الحانة بالرواد من المدنيين وقوات الجيش. الجميع يـأكلون ويسكرون ويتحدثون عن خبر الساعة.

عرف مما تنامى إلى مسامعه أن القوات لم تجد آنا، وأغلب الظن أنها رحلت أو ماتت. دعاه بعض الجالسين لتناول مشروب معهم لكنه اعتذر، وجلس في مكان قصي جوار النافذة في انتظار كيرك.

ما كان يجب أن يترك تانيا في ظروف حملها تلك، صوتها كان هيستريًّا عبر الهاتف. تشارلز قد تأخر، لكن أيا كان ماسيحدث، فلابد أن يلحق بميعاد العبارة. لو لم يأتِ خلال دقائق، سيجمع حاجياته ويترك له ملاحظة مكتوبة تشرح الموقف..

راح يرمق التلال وأمواج المحيط الأطلسي، حيث يغفو آلان كيرك في قاعه.. تشارلز كيرك وحيدٌ تمامًا.

اللعنة على جون فورست، واللعنة عليك يا حبيبتي تانيا! لمَ تركتي خيالك يجمح إلى هذا الحد؟

خطر على بال ماركوس فجأة أسماء ثلاث: كاجال وفوربس ولاشلي.. لمَ تذكرهم وقد كانت أبحاثهم بعيدة عن أبحاثه؟

لقد زرعت هيلين فان ترايلِن القصة البشعة في لا وعي ماري، وقد جعلتها عقاقير هَينس تطفو على السطح..

كاجال وفوربس ولاشلي..

لا يوجد أي دليل علمي على إمكانية استحواذ روح ميت على عقل حي.. فكرة لا تنتمي سوى لخيال القاصين.

كاجال وفوربس ولاشلي وتايرِل..

أضاف ماركوس اسمًا رابعًا، واستعاد أحداث قصة روَّعته وهو بعد طفل. كانت التفاصيل ضبابية، لكن القصة تحكي عن طفلٍ، وعجوزٍ، وجبل ونسور كذلك.. بشكلٍ ما كانت النسور هي سبيل الخلاص.

لم يستطع أن يتذكر التفاصيل، لكنه يذكر جيدًا الكوابيس التي سكنَته ودفعته للتقلب فوق فراشه القشّي في محل والده في ليمبرج.

الوقت يمُر، ويبدو أنه سيرحل قبل قدوم كيرك إن كان يود اللحاق بالعبَّارة..

قاوم ماركوس نظرية جديدة تحاول اقتحام عقله، لكن تفاصيل القصة التي أخافته بدأت في العودة.

الحجرة المرفقة بمحل أبيه كانت مظلمة خالية، والمطر يطرق شيش النوافذ، لكن رسومات القصة الملونة كانت جلية أمامه.

كان يعرف أن السهوب البولندية تمتد إلى أعلى جبال الألب، وعند واحدة من تلك القمم، راح عفريت قزم محني القامة يتسلق، حاملًا صُرة بيضاء بين ذراعيه. توقف وفتحها، وانحنى ينقل روحه الشريرة إلى جسد الرضيع في الصُّرة. تلامست شفاههم.. ومن وسط السحاب بزغت النسور.

كاجال وفوربس ولاشلي وتايرِل..

وكان الاسم الأخير هو ما يهم ماركوس. أزاح كرسيه ودفع كل من يقف في طريقه مندفعًا إلى خارج الحانة، وقد نسي كل شيء عن موعد العبَّارة. لأول مرة يدرك أن ثمة تفسيرًا عقلانيًا لحالة هياج آنا هارب المفاجئة في المستشفى، ولحالة ماري فالي، ولوفاة سيدني مولسون.. تفسيرًا عقلانيًّا لكل شيء.

قال لنفسه وهو يعدو نحو المستشفى:

«آسف يا تانيا ويا سيد فورست، فأنتما الوحيدان اللذان استطاعا أن يقتربا من الحقيقة، وقد ساعدتني قصة خيالية على تصديقكما. حبيبتي الماهرة الذكية تانيا.. أحبك!»

وأرسل قبلةً في الهواء إلى ما ظنه اتجاه لندن وأردفَ:

«وشكرًا لكم يا زملائي العلماء كاجال وفوربس ولاشلي وتايرِل.. أنا مَدينٌ لكم بكل شيء.»

الفصل السادس عشر

- المرأة قد ماتت سيدي الجنرال كيرك، لا يوجد أي شك في ذلك، وكذلك متأكد من أنك لن تجد أي جثة. وبلا جثة، ستتحول القضية إلى أسطورة.. ستظل هذه الجزيرة رمزًا للجريمة والجنون والسحر لعقود. ستنهار أعمالنا ولن يجيء سوى المستكشفين الذين سيظوننا غيلان.

ضرب كاميرون لوح الزجاج فوق الخارطة وأردف:

- ستزول آنا هارب، لكن سيبقى سمُّها. الكولونيل فينويك قد أصدر تقريرًا بأن الجزيرة قد مُشِّطَت بالكامل ماعدا قسمًا يسيرًا سينتهي منه صباحًا. المكان المتبقي هو مستنقع دورموند، وقد مسحته الطائرات أمس وبدا مكشوفًا تمامًا أمامها. لا يمكن لأرنب أن يختبئ هنا حتى. المرأة ماتت وستبقى حكايتها شوكة في حلقِ بالا.

رفض كيرك عرض كاميرون عليه بمزيد من الشراب، ثم سأل:

- ولكن، كيف توقنون بموت آنا هارب؟ حتى نجد الجثة، علينا الوضع في الاعتبار أنها قد تكون موجودة ووجودها خطر.

- لأننا لن نجد جثتها سيدي الجنرال. لو كنت تعرف بالا كما أعرفها، ستفهم سرَّ تأكُّدي. المستنقع يبتلع الجثث، والمحيط يجرف أي شيء كنهر سريع جارٍ. هي ميتة سواء في باطن الأرض أو في أعماق المحيط.

ظهرت أضواء نيران قوية من النافذة خلف كاميرون. التفت الأخير وقال:

- نحن في موسم احتفالات والجزيرة تكتظ بالسياح والصحفيين وأفراد الجيش، بالإضافة إلى المُخربين كذلك. لا مكان للاختباء.

ألا تريد كأسًا آخر سيدي الجنرال؟

- كلا، شكرًا لك. عليَّ أن أقابل ماركوس في السادسة والنصف، والوقت يجري.

- لتسأل صديقك عن رأيه فيما قلت إذًا..

رمق كيرك الاحتفالات والنيران عبر النافذة، وفكر في كيف أن ماري تحب وتكره النيران في آن واحد. سأل كاميرون:

- كنت أتساءل إن كانت آنا هارب تعشق النيران هي الأخرى. الليلة سيقام معسكر تخييم في الملجأ وسيشعلون النيران ويطلقون الألعاب النارية.. فهل سيستفزها حفل كهذا ويرغمها على الظهور؟

- لا أظن، لسبب بسيط هو أنني مقتنع أن المرأة ماتت، وابتلعت الأرض أو المحيط جثتها. لو كانت حية، فلن تستطيع الاقتراب أبدًا من إنفر هاوس، القوات تحرس المكان.

راجع كيرك ما يتذكره عن مبنى الملجأ. المكان محاط بسور بارتفاع ثماني أقدام، داخله تمتلئ الأفنية بالأشجار والنباتات، وينتهي الفناء عند حافة الجرف، وهو ما اعتبره أمرًا خطرًا للغاية على الأطفال. ويحيط المبنى الرئيسي الأثري بأبراجه السامقة، عددٌ من المباني الأحدث وتقوم مقام مرآب ومخازن ونحو ذلك. قال:

- لا أقلق بصدد دخولها، فلو أن آنا هارب حية، فخير مخبأ لها هو داخل أسوار إنفر هاوس نفسه.

- إلهي! سيدي الجنرال، برغم رفضهم دخول قوات أمن إلى داخل الأسوار، إلا أن أعضاء الأخوية قد فتشوا المكان جيدًا بأنفسهم ولا أثر للمرأة بالداخل. فلمَ القلق؟

- بسبب عشق فتاة صغيرة للنيران يا رئيس الشرطة..

صورة مرعبة خطرت على عقل كيرك، نيران الاحتفال، ألعاب نارية، أطفال يضحكون، مسنون يحاولون تخطي أحزانهم، وفي الظلال تكمن امرأة.. وحش يتحين فرصة للانقضاض.

- مجرد حدس يا كاميرون.. أفضِّل أن أعود للملجأ الليلة؛ لذا أستأذنك في الرحيل.

- كما تشاء.. عُد إلى الملجأ لتلعب دور كلب الحراسة، لكن الليلة يكثر الشغب، فلا تتوقع أن أذهب معك. لقد فعلت كل ما بوسعي لحمايتهم وأعتقد أن الخطر قد زال.

جلس وكتب كلمات على وريقة أعطاها لكيرك وقال:

- أعطِ هذا الخطاب لقسم الشرطة، وسيوفرون لك مواصلة آمنة، فلا أريدك أن تجول وحيدًا وينتهي بك الحال كما انتهى بالغجرية على يد البلطجية.

قاد كاميرون كيرك حتى باب استراحته مُودعًا، ثم عاد إلى كرسيه وغمغم:

- يا لَهُ من عجوز أحمق. المرأة اللعينة ماتت.

رن جرس الهاتف، فقام ليجيب.

- آه.. هذا أنت أيها المفتش.. ما الأخبار؟ المزيد من التخريبات؟

- كلا يا سيدي.. أنا أهاتفك في المستشفى ومعي السِّير ماركوس لَفين. لقد حكى لي نظرية غريبة، وطلب مني أن يطَّلِع على الأدلة الطبية، لكن دكتور نايت هنا كذلك ويرفض التعاون.

- إذًا فلترغمه على التعاون. سير ماركوس رجل ذو خبرة وأمانة.

كانت مغادرة كيرك السريعة غريبة بالنسبة لكاميرون، وذكر تحرش الدكتور نايت زاد من اعتلال مزاجه؟ صاح مردفًا:

- اللعنة يا جرانت، ألا يمكن لأحدكم أن يتصرف دون أن يزعجني كل دقيقة؟

- بالطبع يا سيدي، لكن اسمع لو سمحت. أعتقد أن عليك الحضور حالًا، فالسير ماركوس يقول...

راح كاميرون يسمع وتتغير تعبيرات وجهه. بعد خمس عبارات فقط ألقى سماعة الهاتف وجرع باقي زجاجة الويسكي، وهرع خارجًا من الاستراحة دون أن يرتدي حتى معطفه.

الفصل السابع عشر

- آسف سير ماركوس، لكنني لا أستطيع اتباع طريقتك.

دكتور جيمس نايت كان طبيبًا شابًا متشككًا مغرورًا إلى حدٍّ كبير. مع الوقت سيكون ممارسًا عامًا ماهرًا، لكنه عالقٌ في لوتشيرن منذ ستة أشهر، لا يأتمنه المرضى المحليون كونه إنجليزيًّا. أردف:

- نحن نعرف كيف ومتى مات كل شخص منهم، فقد ماتوا في انفجار شهدته بنفسك يا سير ماركوس. فلمَ ترغب في فحص بقاياهم الآن؟

- لم يتم تشريحهم كما يجب يا دكتور. ربما لم يجدوا التشريح ضروريًّا وقتها، لكنني أريد إجراء فحوصًا معينة على الجثث الآن.

تحدَّث ماركوس في هدوءٍ بنبرة تكاد تكون مُستجديةً، لكن نايت صاح متستنكرًا:

- تشريح؟ جثث؟!

كان الحسنة الوحيدة في خدمته في تلك المستشفى هو شعوره بأنها مُستشفاه، ثم أتى هذا المتحذلق من لندن وشكَّك في نفوذه ودس أنفه في عمله.

- لم يتبقَّ منهم ما يمكننا إطلاق لفظة «جثة» عليه، ألا تدرك ذلك يا سير ماركوس؟ الشرطة أقرت بأن ثلاثة أرطال من الديناميت كانت على متن تلك العبَّارة، أليس كذلك أيها المفتش؟ كل ما وصلنا مجرد أشلاء، ولم نتعرف على أي منهم سوى رجل واحد وجدنا وشمًا على بقايا ذراعه. لن نقوم بالتشريح يا سير ماركوس، ولا أجد سببًا واحدًا يضطرني لذلك.

- لكن الجثث.. معذرة، بقايا أنسجة الجثث التي عثروا عليها لا زالت في عُهدتك، محفوظة في ثلاجة الموتى. أليس كذلك؟ كل ما أطلبه هو فحص تلك الأشلاء لا أكثر. لا يمكنني إبداء أسبابي الآن للأسف، وذكرت نظريتي للمتفش ولرئيس الشرطة ووافقوا على الإجراءات التي أريدها. حتى الآن نظريتي غير مؤكَّدة؛ لذا لن أخبرك بها.

كانا المفتش وكاميرون صامتين في البداية، لكن كاميرون قال أخيرًا:

- اسمعني يا نايت.. أنا أعي جيدًا مؤهلاتك العلمية، لكنني أعي كذلك أن السير ماركوس لَفين عالمٌ شَهيرٌ مُحترَمٌ وقد طلب مني طلبًا معقولًا وأنا سمحت له.

حاول ماركوس أن يستعيد دفة حديثه، لكن كاميرون انطلق مردفًا:

- أنا رئيس شرطة هذه الجزيرة، ورئيس مجلس المُقاطعة وأكبر مالك للعقارات. فلو لم تتعاون مع السير ماركوس حالًا، فسأنظر في أمر عقدك في هذه المستشفى وتخسر أي مرضى لك هنا. هل كلامي واضح يا دكتور؟

- واضح تمامًا. منذ اليوم الذي أخبرتك فيه بحالتك الصحية، وموقفك تجاهي لم يُصَر واضحًا فقط، بل صار مؤذيًا. أعرف أنك تستطيع أن تؤلب عليَّ فلاحينك فأخسر عملي، لكن حتى الآن أنا المسؤول هنا. هلا خرجت من المستشفى الآن قبل أن ألقيك خارجها؟

صاح ماركوس بصوت جهوري واثق:

- اكبر يا دكتور نايت! نحن زملاء، وأنا أطلب منك التعاون، طلب زميل من زميل. لا يوجد سببٌ يجبرك على تشريح البقايا ولا يلومك أحد على أي تقصيرٍ. ضَع هذا الكلام في عقلك. كل ما أريد هو السماح لي بإجراء فحوص بسيطة، وكزميل، أتوقع أن تتكرم بمساعدتي.

- حسنًا يا سير ماركوس، إن كان الأمر كذلك، سأفعل ما تريد رغم يقيني أنك تضيع وقتنا. تفضلوا..

تكرار كلمة «زميل» قامت بأثرها على أكمل وجه، وانتفخ نايت زهوًا أخيرًا. قادهم إلى حجرة تقوم مقام المعمل وحجرة العمليات.

التفت نحو كاميرون قائلاً:

- هل سمعت ما قاله سير ماركوس؟ لم يكن عليَّ إجراء أيّ تشريح، لأن سبب الوفاة كان واضحًا. لا يوجد ما يلومونني عليه مِهنيًّا.

- سمعت بالطبع يا دكتور، لا يوجه لك أحدٌ انتقادٌ بشكلٍ عامٍ. أعتذر على انفجاري فيك، لكن إن صحَّ شكُّ السير ماركوس، فعليَّ التصرف في أسرع وقت.

أعاد الاعتذار مزاجَ نايت الجيد، وقال:

- طبعًا.. ماذا توَدُّ أن تفحص يا سير ماركوس؟ فكما قلت لك لا نملك أي جثة كاملة.

- كل ما أريد هو خُزعة من نسيج المخ، هل لديك مجهر؟

- لدينا بالتأكيد، الأخت آجنيس ستجلبه لك.

خرج نايت من الحجرة، والتفت ماركوس إلى الممرضة التي كانت تحمل إليه طلبَه. كان المجهر من طراز ألماني حديث، وهو ما لم يتوقع وجوده في بالا. شكر الممرضة ولاحظ خليط الأعراق على ملامحها. شعر أسود من السِّلت، وبشرة بيضاء وعينان زرقاوان من الفايكنج.

- أريد كذلك شرائح ومبضع، وأي صبغة، جنتيان بنفسجي سيكون مناسبًا. تمني لي حظًا سعيدًا أختاه.

رغم ابتسام ماركوس، إلا أنه لم يكن مرحا أبدًا. لو صحَّت شكوكه ووضعته مكالمة تانيا العجيبة على بداية الطريق الصحيح، سيثبت أن آنا هارب ليست مصدر الشر الوحيد على تلك الجزيرة.. فعدوهم فَيْلَق كامل. لكَم تمنى أن تكون تانيا جواره.

في الخارج صدحت أبواق العبَّارة مُغادرة، تلك التي كانت ستحمله لزوجته.

لو أن تشارلز كيرك هنا.. لمَ هرع إلى الملجأ بهذه الطريقة دون أن يترك له رسالة حتى. بالطبع لدى كيرك ما يفعله، لكن وجوده كان ليطمئن ماركوس كثيرًا حتى بمجرد سماعه نظريته لا أكثر.

كان يحتاج من يخبره بأن نظريته هراء، ولا وجود للشياطين ولا للاستحواذ ولا للظلام الذي يجوب الأرض هنا. عادت له مجددًا رسمةٌ من أيام طفولته المثقلة.. عفريتٌ قزم يصعد جبلًا، ومن فوقه تُحلِّق النسور.

عاد الدكتور نايت ووضع وعاء ذا غطاء على الطاولة أمام ماركوس.

- هل جلبت لك الأخت آجنيس ما تريد؟

فتح ماركوس غطاء الوعاء، وشم رائحة مادة حافظة تسبح فيها قطعة من نسيج بشري لشخص كان يُدعى جورج لِكولُس، المليونير صاحب خيول السباق الشهير.

حضَّر ماركوس شريحته باحترافية، ثم وضعها تحت المايكروسكوب وأضاءت الممرضة الكشاف. مال المفتش وكاميرون كالأطفال في فضول منتظرين نتيجة كل هذا السحر العلمي.

قال ماركوس:

- أعتقد أنكم قد عرفتم هوية ضحايا آخرين غير لِكولُس، لكنه هو أول من وجدتم أشلاءه، أليس كذلك يا دكتور؟

كانت المواد الحافظة والتبريد قد حفظا الكثير من حالة الأنسجة. أمامه رأى منظرًا جميلًا.. لوحة مرسومة بالخلايا الذابلة والكريات الدموية المصبوغة بالبنفسجي من أثر الصبغة. لوحة لم تُعرب عن الكثير. سأل ماركوس:

- كم بقيت الأشلاء في البحر؟

أسند نايت كوعيه على المنضدة وهو ينظر باهتمام وأجاب:

- أقل من ساعة يا سير ماركوس. قارب صيد انتشل بقايا لِكولس سريعًا. لكنني بعد لا أفهم، الرجل مات منذ يومين؛ فماذا تتوقع أن ترى؟

- على الأغلب لن أجد شيئًا.. ثمانٍ وأربعون ساعة وقتٌ طويلٌ.. لكنني أتمنى أن تكون المواد الحافظة والتبريد قد أنقذا شيئًا.. لحظة..

كاد ماركوس أن يزيل الشريحة ليضع غيرها، لولا أن رأى شيئًا فأعادها إلى مكانها متصلبًا. تسعة أعشار الصورة أمامه لا تبدي شيئًا سوى عالم من الخلايا الذابلة، لكن عند الركن العلوي الأيمن كان الاختلاف. كان للخلايا مظهرٌ صلبٌ كالمعدن.. مظهرٌ أكد أسوأ مخاوفه..

ربما كان ما رآه مجرد أثرٍ للحفظ. أعطته الممرضة الشريحة الثانية، فوضعها ومسح قطرة عرق انحدرت عن جبينه. تسارعت دقات قلبه وهو يدقق من خلال المنظار، لأن الدليل صار جليًا أمامه..

الشياطين حق، وتانيا مُحقة..

كاجال وفوربس ولاشلي وتايرِل..

دعا نايت كي يجلس مكانه ويرى بنفسه.

- انظر بنفسك يا دكتور نايت. تَطَوّر الإنتان (الغنغرينا) واضح كم أظن.

أطلق نايت صافرة ذهول، وانطلق ماركوس إلى المغسلة يغسل كفيه جيدًا وبحرصٍ شديدٍ.

- ما هذا يا سير ماركوس؟! وهل تأكدت من نظريتك أم لا؟؟

- آسف جدًّا لقولي أنني تأكدت من نظريتي يا رئيس الشرطة. نعلم أن هذا الرجل، لَكولُس، كان على متن العبارة المُنفجرة، وأن جسده قد تقطّع فلم يعد التعرف عليه ممكنًا إلا من وشمه. وكان هذا منذ يومين بالضبط.

تناول ماركوس المنشفة من الممرضة وراح يجفف كفيه مُردفًا:

- ما أريد قوله هو، جورج لِكولُس لم يَمت في الوقت الذي ظنناه أو بالطريقة التي رأيناها. حالة أنسجة المخ توضح أن الرجل قد مات قبل انفجار العبَّارة بيوم كامل على الأقل.

الفصل الثامن عشر

أمسية التناقضات هي..

من ناحية الجنوب والغرب، كانت السماء صافيةً مُزدانة بالنجوم، لكن من ناحية الشَّمال، كانت كتل من سُحُبٍ داكنة تهاجم الجزيرة كجيش سماوي.

في طريق كيرك إلى قسم الشرطة للحصول على مواصلة إلى الملجأ، قابل شاحنة تابعة للجيش وعرضت عليه توصيله. كان الضابط الجالس جوار كيرك في كابينة الشاحنة مرحًا يبدو في السادسة عشر لا أكثر. قال:

- يبدو أن عاصفة قادمة. ننام في خيامٍ كما حكيتُ لك، فستكون عاصفة كتلك ذكرى لن ننساها.

- يبدو أنك مستمتعٌ أيها الملازم.

كان الطريق غير مُمهَّدٍ، وأمسك كيرك بطرف الباب كي يمنع تمايله الشديد.

- أنت مُحِقٌّ يا سيدي الجنرال. نحن وِحدة تحت التمرين، ولمدة ثلاثة أشهر كنا معزولين في ثكنة خارج كارلايل. نُعتبر الآن في نزهة مشوقة.. لكننا نشعر بخيبة أمل إلى حدٍّ ما.

أشاح كيرك بوجهه بعيدًا عن الضابط المبتسم.. لمَ يذكره كل هؤلاء الشباب بابنه هذه الأيام؟ مات آلان منذ ٢٥ عامًا ودُفن في أعماق المحيط، فلا يوجد سبب لتعذيب نفسه بذكراه. كل ما كان يتمناه الليلة هو عربة شرطة بسائق قليل الكلام توصله إلى الملجأ بلا أي إثارة للذكريات.

- لمذا شعرتم بخيبه أمل يا بني؟

- لم نجد فرصة للقبض على المرأة حية يا سيدي. إما أنها ماتت أو غادرت بالا، سنعود إلى كرلايل خلال يومٍ أو اثنين خالي الوفاض. خسارة.. لكننا استمتعنا فعلًا.

أطلق السائق نفير الشاحنة، وعلى ضوء كشافاتها رأى كيرك الطريق مغلقًا أمامه، يسده حشد من الشباب في سترات جلدية وخوذات. بعضهم كان يشعل ألعابًا نارية بغرض استخدامها كقنابل يدوية.

- لا تتوقف أيها العريف جيفريز، أطلِق نفيرك ولا تقلِّل من سرعتك. سأتحمل أنا نتيجة أي شيء يحدث.. قُد خلالهم!

كان صوت الملازم متحمسًا للغاية. قال السائق:

- أوامرك.. رسالتك مفهومة تمامًا.

دعس السائق بدَّال البنزين في أرضية الشاحنة، فزأرت العربة، وأعدَّ كيرك نفسه لسماع اصطدام المعدن باللحم البشري.

انطلقت الألعاب النارية أمامه، لكن سرعان ما تشتت الجمع كالفئران أمام سرعة الشاحنة. صاح الملازم:

- أوغاد.. أتمنى لو استطعت النيل من بعضهم يا جيفريز. أتعلم ما حدث لفريق منَّا أمس؟ عشرون جنديًّا غير مسلحين هاجمتهم عصابة من خمسين شخصًا مثل هؤلاء، هاجموهم بالسكاكين والسلاسل. سأسعد جدًّا بالخلاص منهم في طريق العودة لو ظلوا في مكانهم.

سطع القمر من خلف الجبال، وبدا الطريق كشريط يمتد في الظلام إلى ما لا نهاية.

«لا تخَفْ.. فلا شيء يخيف..

لا تنظر يمنة أو يُسرة على امتداد طريقك.

فلا شيء سوى الليل.»

عبس كيرك حين خطرت الأبيات على باله، فقد كان هو الوحيد الذي تساءل عن سبب اقتباس آنا هارب عن الشاعر هاوسمان «الروح التي ما كان لها أن تولد.» وهو الوحيد الآن الموقن بأن المرأة حية وخطرة.

كلهم بما فيهم الجيش والشرطة وماركوس اقتنعوا أن الخطر قد زال. لكن بشكل ما كان موقنًا أنها حية، وسيراها بنفسه الليلة.

- أعتقد أن هذه هي نهاية طريقنا، فسأصحب هؤلاء الجنود إلى لوتشيرن.

توقفت الشاحنة جوار مجموعة من الجند، وسمع كيرك خطواتهم إذ يصعدون إلى الكابينة الخلفية. مدَّ الملازم يده مصافحًا:

- مع السلامة يا سيدي. إنفر هاوس على بُعد ثلث ميل، يمكنك أن تراه من عند المرتفع القادم. كنت أود لو أوصلك حتى هناك، لكن لدي أوامر بالعودة سريعًا.

- أشكرك يا بني.

تصافحا، لوهلة رأى كيرك ابنه في الشاب المهذب، وكأنه بُعِث ليودعه.

* * *

بعد ما حدث لاحقًا، لم يعد يذكر كيرك ما حدث خلال رحلته مشيًا إلى الملجأ. فقط يذكر انطباعات مشتتَّة. يذكر لمعة الشواطئ تحت ضوء القمر.. اقتراب السحب في السماء محمولة على أكف الريح الباردة.. أصوات النوارس..

كان يشعر وقتها أنه ليس وحيدًا، وأنها تراقبه وتسير خلفه. التفتَ مرتين سريعًا كي يباغتها لكنه لم يرَ أحدًا. وظلت قصيدة هاوسمان تتردد في عقله بإلحاح.

كان يشعر بالزلط على الطريق عبر حذائه المدني الخفيف، ويشعر بثقته العمياء بكونه على صواب والجميع مخطئون.. آنا هارب حية وهو يسير إليها الآن.

أخيرًا رأى الملجأ أمامه. حين زاره وماركوس قبلًا كان النهار جليًا، ومع ذلك كان يشعر بأنه مكان حزين. والآن يبدو مشئومًا.. كئيبًا..

تحقق حارس الشرطة من شخصيته، وأراه كيرك الخطاب الذي يأذن له فيه رئيس الشرطة بدخول الملجأ. قال الحارس:

- يمكنك الدخول طبعًا يا سيدي، لكنني لا أعرف كيف سيستقبلونك. طلَبْنَا منهم مرارًا أن يسمحوا لحرسٍ بالتواجد في الداخل لكنهم رفضوا. قالت دكتورة تايرِل إنهم قادرون على حماية أنفسهم. شخصيًّا أعتقد أن المرأة لم تَمُت.

- دكتورة تايرِل؟

بدا الاسم مألوفًا لكيرك وهو يُعيد إذنَ الدخول إلى جيبه.

- أقصد دكتورة روز يا سيدي.. تايرل اسمها قبل الزواج، وقد تزوجت من رجلٍ يدعَى روز لكنه مات منذ فترة.. انتحارًا.. مسكينة دكتورة لورا روز.

نظر الحارس إلى صاروخ ينطلق إلى السماء وأردف:

- حفلٌ مُبهرٌ.. شخصيًّا لا أتفق مع ما يحدث فهو ضد الدين.

منظر الصواريخ والنيران البعيدة ذكَّر كيرك بانفجار العبَّارة الذي أحدثته خمسة أصابع من الديناميت، ويقولون إن ثلاثة كافون لإحداث الانفجار. فكَّر كيرك في أن يطلب من الحارس أن يصحبه، لكنه لم يكن يملك دلائل تدعم خوفه هذا.

كانت البوابة الرئيسية مغلقة، لكنه دخل من تلك الجانبية المفتوحة، وسار وسط ممر تَحُفُّه الأشجار الكثيفة على الجانبين.

هل سيستمعون له هذه المرة؟ هل سيقتنعون أن الملجأ هو المكان الآمن لاختباء غريمتهم، وأن كوابيس ماري فالي وصلتها من أم مهووسة بالنيران؟ هل سيقدر على إقناعهم بأن نيرانهم ستستفزها للخروج والإطاحة بهم؟

فكَّر في الدمية التي صنعها الأطفال لحرقها في الحفل، فكَّر في شخصٍ قد يفرغها من حشوها القماشي ويملأها بالبارود والمفرقعات. شخص ينتظر موت ابنته وكل مَن أخذوها منه؟

مع اقترابه أكثر سمع غناء الأطفال، الأطفال الذين سيلتفون حول النيران قريبًا كفراشات عمياء.

رأى النيران على بُعد مائتي ياردة منه، كانت عند حافة الجرف وبدت كفنار لإرشاد البحارة في زمن سحيق.

كان مع الأطفال رجل وامرأة، ومن الأطفال مجموعة يرتدون ثيابًا عادية، ومجموعة أخرى يرتدون أزياءَ احتفالية تجعلهم يبدون راشدين. كان الأولاد يغنون والبنات ترقصن، ومن فوقهم يتدلى ما يخشاه.

دمية بحجم إنسان طبيعي معلقة فوق النيران. الجسد كان على هيئة بشرية، والوجة عبارة عن قناع خنزير. كان المجسم مربوطًا بحبلين، وتجلس ماري فالي جوار واحدٍ منهم ممسكة بسكين، مرتدية قفازين يصلان حتى كوعيها.. توقف كيرك لحظات حتى أدرك أن ماري ترتدي زيًا مماثلًا لزي الراحلة هيلين فان ترايلِن.

ضعف جسد كيرك من المجهود والإرهاق، لكنه دفع نفسه للركض سريعًا. كان موقنًا مما يحتويه قناع الخنزير الباسم هذا، ولو انقطع حبل واحد لسقطت الدمية في النيران ووقعت الواقعة.

مائة وخمسون ياردة..

يعدو مسرعًا..

لا.. لا.. لا..

مائة وعشرين ياردة..

مائة..

كان يصرخ بأعلى صوت، لكن الرياح وصخب الأطفال حجبا صوته. راح قلبه يخفق ويتعثر في الوهاد لكن الخوف والرعب دفعاه للمعافرة.

فتاة تصرخ لمجرد ذِكر النار.. طفل مطعون بشكل طقسي.. طفل آخر تقذفه الأمواج.. وأمامه الآن الفصل الأخير، وعليه أن يمنع الدمية من السقوط في النار.

سبعون ياردة..

- ماري.. لا تقطعي الحبل!

أخيرًا أبصره بعض الأطفال، لكنهم لم يعبئوا به واستداروا نحو النار.

- ماري.. اسمعيني..

خمسون ياردة.. ولم يقدر على العَدو أكثر. وضعَ ما تبقى من طاقته في صيحة أخيرة:

- ألقي السكين يا ماري.. آمرك أن تلقها.

سمعته ماري فالي، لكن كل ما فعلته هو الابتسام ووضع كفًا مقفَّزًا على شفتيها في غَنَج طفولي، والكف الأخرى ممسكة بالسكين.

تألقت أسنانها في وهج النيران. تركته يقترب حتى مسافة عشرين ياردة، ثم بدأت في قطع الحبل.

ارتمى كيرك أرضًا خائر القوى، لقد فعل كل ما يستطيع. بدأ الحبل في التمزق وترنحت الدمية المعلَّقة. غطى وجهه في ذعر منتظرًا الانفجار، لكنه سمع صرخة ألم وعذاب رهيبة، فنظر ليرى منظرًا يثبت خطأ حدسه.. منظرًا سيؤرق منامه لما تبقى من عمره.

مزقت الرياح قناع الخنزير، ليظهر من تحته وجهٌ بشريٌّ.. وجه آنا هارب فاغر الفم والعينين.. ثم سقطت أخيرًا في النيران.

الفصل التاسع عشر

كان كيرك مُسنا وضعيفًا، ولم يتطلب أمر غلبته شيئًا. حمله عشرون زوجًا من الأيادي الصغيرة القوية، بينما يغني الأطفال ويحترق الكبار أحياءً.

كل شيء انتهى وماتت آنا هارب، ودفِنت في السعير الذي لا يزال مشتعلًا يُغذَّى بالأخشاب.

- كدت تفسد حفلنا أيها الجنرال. غير مسموح بالدخول دون دعوة.

ربطوا يديه وقدميه، بيما أردفت ماري فالي:

- هذا هو بيتنا، وأردت ثأري أن يتم في خصوصية. ما كان لك أن تحاول منعنا.

- حرقتِ أمك حية يا ماري؟! وسمحوا لك بذلك؟

كان كيرك راكعًا موليًا ظهره للنيران، وماري واقفة أمامه، ومن خلفها كانت مجموعتي الأطفال، مجموعة بملابس عادية، والثانية بملابس احتفالية. تبقى بعض الأطفال جانبًا، مكسورين يبكون.

- يسمحون لي؟ الأوصياء تقصد؟ لا يجرؤون على منعي من فعل أي شيء يا جنرال كيرك. قبل كل شيء، أنا السيدة هنا.

التفتت ماري نحو مبنى الملجأ، وانحنى لها العجائز المتبقون، مباركين لما تفعل.

- اسمعيني يا ماري، واسمعيني جيدًا..

كان عليه أن يركز أكثر كي يجد كلمات مناسبة. كان الجزء الأول من نظريته سليمًا، فبعد قتلها سيدني مولسون، اختبأت آنا هارب في الملجأ، لكنهم وجدوها وانتقموا منها انتقامًا مُريعًا.

- ماري.. لديك الحق في كراهية أمك والخوف منها. لكنك لا تدركين ما تفعلين وتحتاجين المساعدة.. آنا هارب كانت امرأة شريرة وقد قتلت هَينس وسيدني مولسون وضحايا العبارة، لكن لا يجب أن تثأري بنفسك هكذا. هذا يدل على أن السيد هَينس كان محقًا في رأيه عن صحتك العقلية.. أنت تحتاجين المساعدة. وهؤلاء الأوصياء مختلون كذلك ولن يستطيعوا حمايتك ولا مساعدتك. الآن أريدك يا حبيبتي أن تفكي وثاقي وتأتي معي لمن يساعدك.

ضحكت ماري فالي مُرجعة رأسها للخلف هاتفة:

- أنت غبي يا جنرال كيرك.. مسكين أحمق!

راحت تدور حوله كالضباع، يكشف الفستان الطويل الذي ترتديه سيقان طفلة، لكن وجهها بدا في ضوء النار كوجهٍ مسنٍ سقيم.

- أتظن أن آنا قتلت هَينس؟ لازلت لا تفهم شيئًا.. أنا من قتلت هَينس يا جنرال كيرك.. كان يريد حبسي وفصلي عن أصدقائي. ثم جاء بآنا كي تلقاني وراحا يتحدثان عن المشاكل العقلية، ثم عن الاستحواذ

الروحاني. كانا بعيدين للغاية عن الحقيقة لكنهما في الطريق الصحيح. اختطفت دبوس آنا القبيح وطعنت هَينس بين عينيه. ماهرة أنا! آنا كانت قاتلة والناس ستلومها فورًا. من سيصدق أن طفلة في السابعة قد تفعل شيئًا كهذا؟ جنَّت آنا حين أدركت ذلك، وسحبتني من شعري خارج الحجرة، وكانت تنتوي تعليقي فوق بئر السلم حتى أعترف علنًا بما فعلت. يومًا ما سأشكر سير ماركوس على إنقاذه لي.

ابتسمت مجددًا وأضاءت أسنانها في وجهها الطفولي، لكن شيئًا لم يكن طفوليًّا في عينيها.

- أتفهم الآن؟

- أحاول..

كان تشخيص هَينس هو الفصام، فهل كان تشخيصه صحيحًا أم أن الاستحواذ الشيطاني حقيقة؟

نظر كيرك نحو الأطفال عن يمينه، كان الأولاد يرتدون سراويلَ رجالية طويلة، والفتيات يرفلن في فساتين واسعة.

لقد قتلت من كانوا على العبارة، وسيدني مولسون، لكن ماذا عن الباقين؟ هيلين والكولونيل أندرسُن و.. و..

- كنت أظنك مُخابارتي ذكي يا جنرال كيرك، لكنك أحبطتني. وصلت آنا قبل حادث العبارة بثلاثة أيام. جاءت إلى الملجأ متخفية كي تتحدث مع الأوصياء. حكت لهم ما فعلت بهَينس، وطلبت منهم مساعدتها في إثبات براءتها. هل تتخيل مدى حماقها؟ لم تدرك آنا أننا أخوية بكل ما تعني الكلمة من معانٍ.

نظر لها كيرك مُرتعبًا، ثم نظر للأوصياء عبر الفناء.

- كانوا يعرفون كل تلك الفترة ولم يفعلوا شيئًا؟!

الحقيقة أبشع من أي نظرية جالت بخاطرهم.

- بالطبع كانوا يعلمون، وآنا كانت مفيدة جدًّا لنا. أخفيناها وتلقت هي اللوم على انفجار العبارة وموت مولسون. كانت هدية من الله!

سيدني كان طفلًا مشاغبًا، كان مرتعبًا وحاول الهرب؛ لذا فكان علينا أن نجعل منه عبرةً.

نظرت ماري من مجموعة أطفال إلى الأخرى. المجموعة اليُمنى ابتسمت لها، أما اليسرى فكانوا ينظرون إليها في تبجيل كأنها كاهنتهم.

- لن يكُن منكم مشاغبًا الآن. ربما تخافون، لكنكم لن تهربوا.. ليس بَعد ما حدث لسيدني مولسون.

ضحكت وراحت تدور وترقص مرة أخرى، مادة ذراعيها نحو النار والجرف من خلفها.

جفَّ حلق كيرك والنار تُلهب ظهره، لكنه قال:

- ماري، حاولي أن تفهمي ما سأقول.. لا أعرف لم فعلتِ كل هذا، لكنني أعرف أنك غير مسؤولة عن تلك الأفعال. شيء ما قد استحوذ عليكِ يا عزيزتي وهذا الشيء يحركك رغمًا عن إرادتك. ماري فالي لم تفعل كل تلك الأهوال، لكن شيئًا ما قد..

- ألم تقتل ماري فالي أمها؟ ظننتك رأيتني أقطع الحبل.

ضحكت ماري بصوت عجوز مشروخ وأردفت:

- آنا اعتادت أن تضربني عندما كنت صغيرة، كانت تحبسني في خزانة مظلمة حين يأتيها عُشاقها.. آنا هارب الخبيثة.. أنظر كيف صرخت حين سقطت في النار؟ آخر ثوانٍ في حياتها مسحوا عني كل إهاناتها.

- لكن العجائز على متن العبارة لم يؤذوكِ يا ماري. لقد كانوا أصدقاءك وفعلوا كل ما في مصلحتك. لماذا قتلتِهم؟

ضحك الأطفال، فالتفتت ماري وهمست لطفل من الأطفال الكبار، فهز رأسه وجرى نحو المبنى.

- أنت لم تفهم أي شيء يا سيدي الجنرال. تظن أن قوى روحانية استحوذت علينا، أليس كذلك؟

فاضت دموع الضحك على خديها الناعمين، وجفت فورًا أمام حرارة النيران.

- سأساعدك على الفهم.. لم يمُت أحدٌ على متن تلك العبَّارة، ولم يُقتل أحد سوى آنا هارب وهَينس وسيدني مولسون. ما فعلناه ليس بِشَرٍ، والجميع أحياء.. جورج لِكولس، بول آندرسِن، نورين ستوكس.. كلهم أحياء آمنون وسط الأخوية التي تحبهم. مؤسسة الأخوية نفسها هنا سيدي الجنرال.. السيدة المسكينة التي ذاب جسدها في صندوق معدني، وكانت تحلم بالخلاص. هل اتضح الأمر الآن؟ هل تدرك من نحن؟ ألا زلت تظنني ماري فالي؟

أشارت إليه بإيماءة ليرى قفازيها، قفازي هيلين فان ترايلِن.

هز الجنرال رأسه في فزع وصرخ:

- لا.. لا..

عاد الطفل حاملًا لفافة من السلك حول كتفه، واستمرت النيران من خلفه في الاستعار.

ضابط من الجيش البريطاني راكعٌ على ركبتيه أمام طفلة في السابعة.

أردف في وهن:

- ربما كانت آنا هارب تملك قدرة استبصارية حين رأتك وعرفت أنكِ لست ابنتها.. لقد عرفت منذ البداية..

تطاير شعر الطفلة إثر الريح، ورأى كيرك جرحًا أبيضَ عند مفرقها، مدخل السّم إلى الجسد.

- أنتِ لم تعودي ماري.. أنتِ الروح التي ما كان لها أن تُولَد.. أنت هيلين فان ترايلِن..

الفصل العشرون

راح رئيس الشرطة يجوب المعمل في المستشفى مُردِّدًا:

- ما تقوله لا يعقل أبدًا.. لقد كشفت حقيقة عجيبة للغاية حين تأكدت من أن لِكولُس قد مات قبل الانفجار بيوم على الأقل!

كان كاميرون يشتاق لجرعة خمر، لكن حضور الموت والرفات البشرية منعه عن ذلك احترامًا.

- أنت تقول إن لكولس والآخرين لم يُقتَلوا؟! وأنهم أحياء؟!

- بعضهم فقط يا كاميرون، أعتقد أن أجزاء معينة من مراكز ذاكرتهم قد ازيلت قبل الموت، وتم زرعها في أمخاخ أحياء.

كان ماركوس يكره أن يعلِن آراءه بدون مؤازرة علمية، وكان متفهمًا لحيرة كاميرون.. ومع ذلك نظريته تلك هي الوحيدة التي فسرت كل شيء.. هي الوحيدة الصحيحة.

- عندما هاتفتني زوجتي في بداية المساء، استعارت عبارة شيرلوك هولمز التي تدعو لنبذ الأكاذيب للوصول إلى الحقائق. كات عبارة مُتقنة عقلانية. افترض فورست وتانيا أن أحلام ماري فالي هي نتاج استحواذ روحاني، وأن روح هيلين فان ترايلِن احتلت عقل الطفلة. كانوا مخطئين لانجرافهم في طريق الماورائيات بسبب قلة المعلومات لديهم. الحقيقة أن لِكولس قد مات قبل وقت طويل من انفجار العبَّارة، وكوننا لم نجد بقايا الجثث التي تفتت تمامًا في الانفجار، هذا يؤكد لما حقيقة مقلقة مرعبة.. حقيقة ممكنة طبيًّا أيها السادة وتحتاج إلى جهد علمي ودراسات مستمرة وولع مجنون بالنجاح. بدأ الأمر بجهود أربعة علماء هم: فوربس ولاشلي وكاجال و... لورا تايرِل! أبحاث تتمحور حول الذاكرة وطبيعتها. بعد إجراء تجارب على الحيوانات، اكتشف لاشلي أن الذاكَرة لا تتمركز في مواضِع معينة من المخ، وإنما تنتشر مراكزها في نطاق واسع من القشرة الدماغية. كذلك أثبت أن لو علَّمنا فأرًا مهاراتٍ معينة، فإنه سيفقدها لو تمت إزالة الطبقات الخارجية من قشرة المخ أو إضمارها عمدًا.

هز كاميرون رأسه بغضب وصاح:

- لا أصدقك.. تدمير نسيج مخي شيءٌ، ونقله شيءٌ آخر! جماعة من العجائز المرتعبين من فكرة الموت يفكرون في طريقة للخلود عن طريق شخصياتهم إلى عقول أطفال! لا يمكن هذا مهما تقدَّم العلم! هذا تجديف ضد فكرة الخلق من الأساس!

استدار كاميرون نحو عدوه، دكتور نايت، مستغيثًا:

- أنت طبيب يا رجل! قُل لي إن سير ماركوس مخطئٌ!

- أنا مجرد ممارِس عام في مستشفى يا سيدي، لا أكثر. لكنني كنت أتساءل دومًا، لم قد تدفن نابغة مثل لورا تايريلَ، أو لورا روز، نفسها في جزيرة كتلك لخدمة أطفال؟ كانت من أعظم العلماء وكانت رسالة الدكتوراه الخاصة بها عن البِنية المادية للشخصية. كذلك تعجبت من هجر إيريك بيتس، أسرع

جراح في بريطانيا العظمى، لعمله الناجح ومكوثه في الملجأ.. كانوا يحتاجون لسرعته المعروفة لأن خلايا المخ تضمر وتفسد أسرع من أي خلايا جسدية أخرى. رغم أنني لم أسمع التسجيل الخاص بماري فالي مع السيد هَينس، لكنني أوافق على نظرية السير ماركوس..

انحنى ماركوس احترامًا لموقف نايت، وقال:

- أشكرك يا دكتور. نحن نذكر كذلك تشوُّه الجثث أو تحوُّلها لأشلاء.. مجموعة من العجائز الموهوبين الأثرياء تربطهم مهابة الموت.

تساءل ماركوس، هل قرأت هيلين فان ترايلن ذات القصة التي قرأها في طفولته واستلهمتها؟ عجوز يتسلق الجبل، وينقل روحه الهَرِمة في جوف طفل بريءٍ.

هل قهرت هيلين الموت فعلًا؟ هل يمكن نقل الذاكرة.. الوعي.. الروح.. أيًّا كان، إلى طفلٍ مُعافى؟ إلى جسدٍ يافع جديد؟

لو حدث هذا فلن يكون هناك موت، ولا خوف من عذاب الآخرة. فقط عبور أبدي من جسد إلى جسد.. عبور من حجرة لأخرى كما قال اللورد فاونلي.

مجرد استعادة ما فعلته هيلين أصابته بالغثيان.. كانت تبحث عن الخائفين من الموت الآملين في الخلود وتضمهم لجماعتها التي ستكافح سويًّا بكل جبروتها لمحاربة الموت والانتصار عليه. التبرعات المهولة للبحث العلمي و.. والملجأ.. جسد طفل وجسد عجوز يتمددان جنبًا إلى جنب أمامًا مبضع بيتس، لتبدأ رحلة التناسخ..

قال نايت وهو يجوب الحجرة:

- كل جسد من الأجساد قد شُوِّه بطريقة أو بأخرى. حادث سقوط.. حادث سيارة.. طلق ناري.. انفجار.. كان عليهم أن يُخفوا ما فعلوه بهم قبل موتهم. كما أشار السير ماركوس، فإن مراكز الذاكرة لا تتمركز في موضع بعينه من المخ، بل تنتشر على نطاق واسع. نقل أجزاء كبيرة كتلك، ستقتل المريض وتخلِّف ندبة هائلة تثير التساؤل، وتفتش السر وسيتساءل الناس عن سِرّ الندبات في رؤوس الأطفال. لكن هناك طريقة لإجرائها بأقل ندباتٍ.. لو كنت أنا من سيجري العملية، كنت سأحفر بالمثقاب الطبي ثقبين ضيقين، وأدخل منهما أنابيب لتجميد قدرٍ من القشرة المخية بالنيتروجين السائل، وقتها سيمكنني إزالة الأنسجة الخلوية على هيئة حمض ريبونيوكولي من مخ المتبرع إلى مخ المستقبِل. سرعان ما ستندمل الجروح الصغيرة ويغطيها شعر الطفل، وبمرور الوقت الذكريات الدخيلة ستحيا كطفيلٍ، غير مرئي، تحت العظام واللحم.

ارتكن كاميرون على حائط خلفه وقال:

- حسنًا، سأتقبل فكرة إمكانية فعل ذلك، لكن.. لو كنت مُحقًا يا سير ماركوس، فإن عشرة من الأطفال على الأقل قد أُجريت لهم الجراحة بالفعل! فما نعلم عنه من الموتى تجاوز العشرة أشخاص! من يودُّ صنع مسوخ كتلك؟! مسوخًا مزدوجي الشخصية؟.. كيف ينقلون ذكريات الموتى لعقول الأطفال؟! ماذا سنفعل بهم؟ نحبسهم في مصحات عقلية؟ نجري عليهما تجارب كخنازير غينيا؟

طرق كاميرون غليونه على الحائط في غضب فانشطر. أردف حانقًا:

- يجب أن تكون مخطئًا يا ماركوس.. فأين آنا هارب من نظريتك بعد كل هذا؟

- لا فكرة لدي.. لقد انجرفت مع التفسيرات العلمية ونسيتها.

قال كاميرون:

- كيرك أخبرني أنه مؤمن بأن آنا تختبي داخل الملجأ، وتخطط لجريمة كبرى أثناء احتفالهم وإيقادهم للنار. قال إنه ينتوي الذهاب إليهم وتحذيرهم. فلو أنه ذهب و...

فتح ماركوس باب المعمل سريعًا وهتف:

- كابتن كاميرون، مفتش جرانت.. سواء صدقتموني أم لا، علينا التصرف فورًا.

الفصل الحادي والعشرون

- أنت هيلين فان ترايلِن..

أخيرًا، أومأت الطفلة للحقيقة وصفقت بكفيها في جزل. وصل الطفل حاملًا السلك، وعرف كيرك أنه سيموت.

موته لم يكن ضروريًّا، فهو عجوز مُتعب لن يعوِّل على حديثه أحدٌ، وكان مستعدًا للعودة لبيته يجر أذيال الخيبة.

فكوا وثاق قدميه، لكنهم ربطوا كفيه ومدوا السلك نحو النار. كان عليه رؤية هالات الشر حولهم، فهم لم يعودوا أطفالًا..

راح الأطفال يغنون ويرقصون عند النار، واصطفَّ أمامه فاونلي وبيتس ولورا وآليسون والباقين، يعلو وجوههم الإشفاق، وراحت واحدة منهم تبكي من أجله.

لكنهم لا يشعرون بأي ذنب، مثلهم مثل الأطفال الذين لم ينقلوا لهم وعي الموتى.. كانوا واقعين تحت تأثير تعويذة خوفهم من الموت ورغبتهم في الخلود. قال فاونلي:

- أنت محق.. هيلين والآخرون صاروا مسوخًا.. قسوتهم بلغت مبلغ قسوة طفل عابث يقطع عن ذبابة أجنحتها بلا هدف. لكنهم مسوخ خالدة، وما إن تنتمج الخلايا الدخيلة سيصيرون أشخاصًا طبيعيين. عمومًا، هيلين قائدتنا ولا نستطيع أن نعصي لها أمرًا.

فاونلي كاذب، رأى كيرك خداع النفس في عينيه.. القلق والظلام اللذان كانا يخيمان عليهم منذ البداية، وظنها كيرك علامات خوفٍ من كيان شرير يحيك المؤامرات المميتة ضدهم. هؤلاء القوم يعون جيدًا صنيعة أيديهم.. يحزنهم ذلك لكنهم إليه مضطرين هربًا من شبح الموت.

رغم أنه موشك على العذاب والموت، إلا أنه لم يستطع أن يخفي إعجابه بدأبهم عبر السنوات وتخفِّيهم خلف الأعمال الخيرية.

لكن.. مَن قاد السيارة المؤجَّرة باسم آنا هارب إلى مستودع المتفجرات وخطط لتفجير القارب.. مَن صاحب العقل الداهية المدبر؟

قالت لورا مستجدية تَفَهُّمه والدموع تنهمر على خديها:

- ماري طفلة صغيرة مضطربة العقل، لكنها ستكبر لتصير سيدة فاضلة؛ لأن في داخلها تنمو روحُ قديسة. عندما أنشأت هيلين أخويتنا، أرَتْنَا الأمل.. الأمل في أن تمتد الحياة من جيلٍ لآخر دون موتٍ أو معاناة. الله قد منحها تلك الرؤية عندما حبِسَت في السيارة وقتَ الحريق. قال لها إنها أداته لمنح البشرية هبة عُظمى. نقلت إيمانها إلينا وساندتنا في كل شيء.. كانت تدعو الله معنا.. وفي يوم شهدنا معجزة علمية، وعرفنا أن وعد الله كان حقًّا.

لن يمر وقت طويل حتى يجيء دوري يا سيدي الجنرال. عندما يعبر واحد من الأوصياء إلى بيته الجديد، يحل آخر محله.. قريبًا سنكتشف أنا وإيريك ومايكل متعة الركض والرقص وممارسة الحب مجدَّدًا.. سنعود صغارًا من جديد.. سنلقي كل همومنا خلفنا مع أجسادنا المُهترئة.. سنعود صغارًا..

كان في صوت المرأة ما يستجديه ليتفهم موقفهم، وما يغريه للانضمام إليهم والعيش من جديد.. لكن الغضب قد أغلق كل منفَذٍ إلى قلبه. قال:

- أتخدعين نفسك يا دكتورة روز؟ لن تصيري يافعة مُجددًا.. كل ما يمكن فعله هو نقل جزءٍ من شخصياتكم العفنة إلى جسد طفلٍ، لتصنعوا مسخًا مصيره للتعفن في مستشفيات المجانين.

قال عبارته كأنها بصقة في وجوههم، وراح ينظر للأطفال الراقصين عند حافة الجرف.

- أنت تتحدثين عن الله، لكنك تحاربين مشيئته. ستدسين مرضك ومخاوفك في روح بريئة. ألا تدركين أن هذه هي الخطيئة التي لن تُغتفَر؟ ربما ستأمرين مسوخك بجَرِّي إلى النار، لكنها لن تُقارن بالنار التي ستصطليها في النهاية.

تركوه وحيدًا، وعادت إليه المخلوقات الممسوخة الصغيرة. قالت ماري له:

- لقد رفضت عرض لورا سيدي الجنرال، رفضت هبة الحياة التي منحها الله لي لأُنعم بها على الآخرين.

- ماري.. لم يمنحك الله شيئًا.. لازال جزء منك هو الطفلة ماري، لذا حاولي فهمي.. حاربي الشر والظلام المتسرب لروحك.. قاومي ذكريات تلك المرأة.. أيُعقل أن يمنحك الله ما تقتلي به وتعذبين؟ تذكري كيف مات سيدني.. كل العذاب الذي عاناه.. لم يطلب منك الله أبدًا فعل ذلك.

ظهرت نظرة مرتبكة فجأة على وجهها، لكنه زالت فورًا.

- فعلًا؟.. كلا.. الله أمرني بهذا..

حُكمَ على الطفلة بالمرض والتشوه بقية حياتها.. روح منقسمة ممسوخة في داخلها، تمزقها..

إلى متى سيستمر انتقال الذكريات من جسدٍ إلى آخر؟ حتى يحتل الأرض جيشٌ من الوحوش؟ قالت ماري:

- ربما يختلف إلهي عن إلهك.. فقد منحني إلهي الحياة، فماذا منحك إلهك؟ السائق المدخن الأحمق ظلَّ يصرخ (إلهي إلهي) ولهيب السيجارة يحرق وجهه.. وفي النهاية؟ مات! وها أنت ترفض إطاعتي.. لنستعد يا رفاقي ولنشهد قوة إله الجنرال أمام حريقي..

بدأ الأطفال يجرونه نحو النار ببطء.. صاح:

- سيعرفون من أنت يا هيلين فان ترايلِن، سيعرفون حقيقتك يومًا..

لم يستجدِ العفو، لم يَخف، لم يأمل في خلاص.. الموت على بعد ياردات منه، وكل ما يخطر على باله هو إحساس بالفشل والخزي. لن ينقذ الأطفال، وسيهرب المجرمون بفعلتهم.

- سيحبسونك في مصحة ويجرون عليك اختبارت، سيعرف أناس مثل سير ماركوس حقيقتك وستصل الأخبار إلى الصحف تحت عنوان «وحوش بالا».

كل ما كان كيرك يحاول فعله هو ترك أي ألم نفسي عند هؤلاء القوم قبل موته.

علا فوق صوت النيران، صوت امرأة هادر، امرأة شعرت بجسدها ينصهر داخل صندوق معدني..

- وعدني إلهي أن لن يجدنا أحد، ولن يكشفنا أحد، ولن يحبسنا أحد..

هل أثَّر الحادث على عقلها وألهمها البحث عن سبيل الخلود؟ برغم كل شيء، كان كيرك متعاطفًا معها.

ظلت ترقص جواره وتدور بفستانها المنفوش، ويُطِّير الهواء شعرها كاشفًا عن آثار جروح في فروة رأسها.

ظل السلك يجذب كيرك، وأصوات الغناء تتعالى من خلفه:

«وها نحن جئنا نجمع البندق في مايو.. في مايو.. في مايو..»

يقترب من النيران ببطءٍ، والطفلة تدور وتردِّد:

«ها قد اجتمعنا لنجمع البندق في مايو، خلال صباح بارد مثلج.»

كان ألمه لا يُحتمل، وقد زادت سرعة الريح ودفعت باللهب نحوه أكثر. شعر وكأنما جسده بالكامل ينصهر، لكنه لن يصرخ.. لن يُرضي غرورهم أو يُشعرهم بالانتصار. أغلق عينيه، وراحت وجوه الأحباء تتوالى.. زوجته وابنته وآلان الحبيب.. والداه.. تانيا وماركوس وابنهما الصغير الذي لم يُولَد بعد. مِن خلف هؤلاء أبصر وجوهًا في الظلال.. وجوهًا رحيمة طيبة مُحِبَّة أكثر من أي شخص رآه في حياته.. ثم رأى العدو الأخير.. الموت، يشفق على من يقاومه.

ظلَّ كيرك يدعو الله على أن يُعينه على تحمُّل عذاب ألمه الأخير، وعلى أن يموت محتفظًا بكرامته دون صراخ أو استجداء. قبض على العشب كاتمًا صراخه. وفوق كل ذلك الصخب، سمع هديرًا قويًّا وصراخًا مريعًا، ظنه من بنات خياله. رفع رأسه ليُلق نظرة أخيرة، وهنا صرخَ.. صرخ في مفاجأة.

كانت الريح قد انقلبت، واضرمت النيران في طرف فستان ماري فالي التي كانت تدور قرب النيران. جرى إليها رفاقها لمساعدتها لكن النيران منعتهم، وراحت تحرق شعرها وتشعل ملابسها. وفجأة لم يعد كيرك يرى الطفلة، بل جسد محني عجوز يعدو نحو الجرف في ذعر، ونظر إلى المسخ صارخًا:

- أنا ألعن إلهك يا كيرك.. ألعن كل شيء قاسٍ لئيم..

الرياح تعوي وترسل النيران خلفها، تطاردها حتى حافة الجرف..

- لمَ أشهدنا الخلود ثم حبسنا عنه وحيدين في الظلام؟

خمس ثوانٍ مروا كخمس ساعات، راح يشاهدها تعدو بين الصخور والوهاد، ثم زال عنه الألم والضوء والإحساس والفِكر.. غاص في العدم.

الفصل الثاني والعشرون

فتح كيرك عينيه ليرى وجه ماركوس الحاني، وسمعه يقول برفق:

- سنخدرك يا صديقي، لا تخف.. لقد زال الخطر، وإصاباتك لن تكون دائمة.

- شكرًا يا ماركوس.. لا أتوقع أن يكون منظري لطيفًا لفترة طويلة، لكن لا تقلق. لم أكن آية من الحُسن من قبل.

حاول كيرك أن يبتسم من تحت الضمادات التي تُغلف وجهه، لكن عضلات وجهه لم تطاوعه. كان يذكر عذابه والريح التي تبدَّل اتجاهها.. لكنه لا يذكر أي شيء آخر.

- كنت أشتهي الموت يا ماركوس.. رأيت الموت بعيني وأردت أن أرتمي بين ذراعيه. كان رفيقًا يا ماركوس..

- نأسف كوننا خيّبنا أملك.. لكن عليك أن تظل سخيفًا سمجًا لبضعة أعوام أخرى.

- أعتقد أن هذا مكتوبٌ عليَّ. كم لبثت في غيبوبتي؟

- حوالي ساعة.. حاول أن تنام قليلًا فأنت متعَبٌ وتحت تأثير مُسكنات قوية.

من خلف ماركوس رأى كيرك أن النار انطفأت، وزال الدخان، وسطع القمر من خلف التلال..

- خلال دقائق سننقلك للمستشفى. قبل أن ننقلك أريد أن توقن أن كل شيء انتهى، فلا تقلق أبدًا.

- لديك حق.. كل شيء انتهى واحترق. لقد تولى الله الأمر كله.

- ماذا تعني؟ لم يكن ما حدث قدريًا. لقد جئنا لك على متن مروحية من لوتشيرن، وحين اقترب الطيار من المكان ورأى ما يفعلونه بك، حاول الهبوط ووجَّه الهواء المندفع من المروحية النيران تجاه ماري فالي.. أو هيلين.. أو أيًّا كانت.. فاحترقت وعدَتْ نحو الجرف إلى الهاوية. علينا أن نشكر الله على معجزاته التي يرسلها متمثلة في خلقه، لا في معجزات سحرية انتهى عهدها. لنشكر الله على تانيا وفورست اللذين توصلا لما هداني إلى نظريتي، والتي أنقذتك بدورها.

جاء مسعفان ليحملا كيرك، فأشار إليهما في وهنٍ أن يبتعدا قليلًا.

- لا تسمح لهم بنقلي الآن يا ماركوس.. أريد أن أفهم كل شيء. أنت تعرف ما هم وماذا أصبحوا وكيف؟

- أعرف كل شيء تقريبًا. أثناء فقدانك للوعي، قام كاميرون والمفتش جرانت باستجواب فاونلي ومن معه، وقد حكوا كل شيء.

- وماذا ستفعلون بهم؟ ماذا سيكون عقابهم.. وماذا عن الأطفال الذين حوَّلوهم.. ماذا سنفعل معهم؟

كان الدكتور نايت واقفًا عند الجهة المقابلة من النقَّالة، قال:

- هون عليك يا سيدي. الأطفال الذين لم يتعرَّضوا لعمليات قد هربوا حين رأوا المروحية، لكننا جمعناهم وهم في أمان تام. أما الآخرون فقد ماتوا كما تموت الفئران النرويجية.

أغمض كيرك عينيه وفهم ما يرمي إليه الطبيب. الفئران النرويجية هي قوارض صغيرة لديها ميول انتحارية، حيث يجتمعون كل ثلاثة أعوام في هجرة جماعية ويأكلون الأعشاب والمحاصيل حتى إذا وصلوا لمنحدر أو شاطئ في نهاية الحقل، رموا أنفسهم من فوقه، أو ماتوا غرقًا.

قال ماركوس رامقًا الجرف:

- لقد تبعوها يا كيرك. رأيتهم بعيني يتبعون سقوط قائدتهم، وكأنهم مربوطون إليها بحبل.

- غريبة.. لقد تاق هؤلاء القوم للخلود، وكانوا يفرون من الموت فرار الحُمر من الأسود. ومع ذلك حين شهدوا وفاة قائدتهم تبعوها! يا لها من أخوية!

خمدت النيران، وبقيت ذكرى امرأة طاردوها زورًا، بينما كانوا يحمون المجرمين الحقيقيين بكل ما أوتوا من قوة. لولا حدس تانيا لنجوا وعاشوا وحوشًا متخفية للأبد.

-هل أنتم واثقون من موتهم؟ كلهم؟

قال ماركوس:

- لقد هووا من ارتفاع مائة وخمسين قدمًا، وتكسرت أجسادهم وجرفهم البحر بعيدًا. لا تقلق.

حقن ماركوس صديقَه بالمخدِّر، وحملوه إلى سيارة الإسعاف.

راح كيرك يرمق البحر محمولًا على المحفَّة، وذكَّره التماع الأمواج بذكرى طفلة سمراء بشعر أشقر..

(تمت بحمد الله)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية

مقدمة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر
الفصل التاسع عشر
الفصل العشرون
الفصل الحادي والعشرون
الفصل الثاني والعشرون